فيصل الأحمر

Telegram:@mbooks90

العشاء الأخير لكارل ماركس

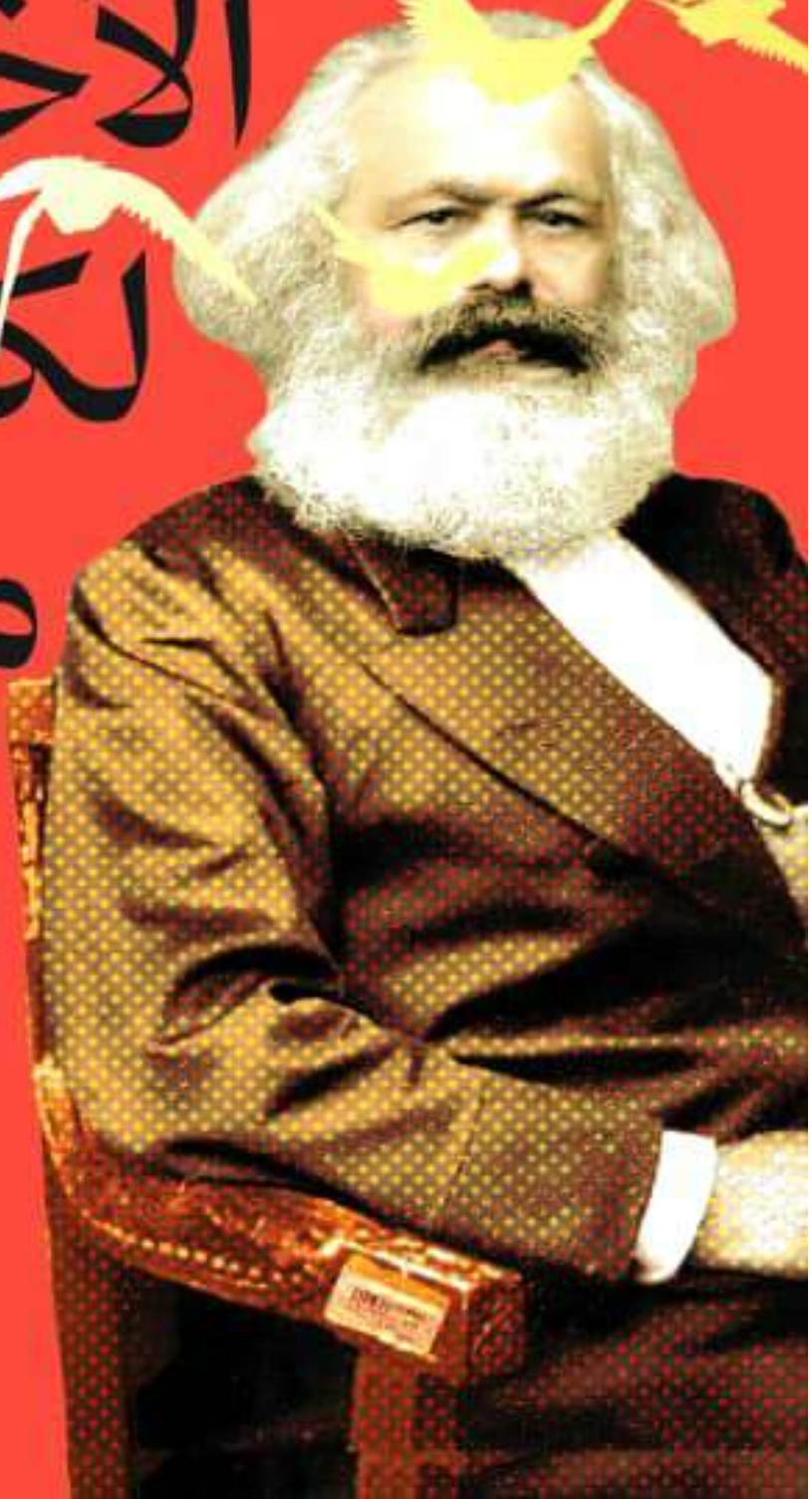

رواية

دار العين للنشر

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

العشاء الأخير لكارل ماركس

رواية

فيصل الأحمر

دار العين للنشر

أسستها د. فاطمة البودي عام 2000

المدير العام

4 ممر بهلر - قصر النيل - القاهرة

تليفون: 23962475 20+، فاكس: 23962476 20+

E-mail: elainpublishing@gmail.com

Web: https://elainpublishinghouse.com

الطبعة الأولى: 2024 م

الغلاف: إسلام أحمد

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٠٢٣/١٦٨٧٣

I.S.B.N 978 - 977 - 490 - 708 - 1

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة لدار العين

تعبر الآراء الواردة في هذا الكتاب عن آراء المؤلف

وليس بالضرورة أن تعبّر عن آراء الدار

٢٧٠٥٨١٨٦٥٨

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ماذا لو أنني كنتُ على خطأ منذ البداية؟

أربعون سنةً من الخطأ المتماسك. الخطأ المنتفخ بحجم العالم.

ما حجمُ العالَم في كلمته تلك التي يكررها دومًا؟

العالم صورة غريبة. صورة التقطها ماركس في هذا القرن التاسعَ عشرَ المُصرَّ على ألّا يشبه أي زمن مضى.

القرن العظيم.

"الخطأ إذا شاع واكتسب بريقًا صار صوابًا".

يذكر ماركس جيدًا هذا التعبير الذي لم يُعجبه في مذكرات كازانوفا. هذا الرجل البرّاق العظيم في عيون الجميع، والذي يمثّل كل ما كان هو يكرهه، وكل ما عمل ضده طوال حياته.

كان المنظر أمامه مثيرًا للانتباه: عمائم كثيرة تتراوح بين البياض والزُّرقة حينًا، وبين شدة التأنُّق في الوضع وسرعة التخلص من وضعها حينًا آخر.

"العرب..

لا أحد يحبهم.

هل سأتمكّن أنا من التعاطف معهم؟

وهل أبقى المرض داخلي ما يكفيني من قوة التعاطف مع الغير لكي أتمكّن من الرأفة لحالهم؟

من الصعب على شخص مثلي هو وريث عصر الأنوار في جُلّ خانات دماغه أن يحب العرب. القرن الثامن عشر محا كل أثر للعرب على المدوَّنات الحضارية. بقي لهم ابن سينا وابن رُشد، وصلاح الدين كرجل سياسي غامض، ثم قصر الحمراء وبعض النوطات الشرقية الجميلة في أوبرا موزار اختطاف السرايا. الباقي كله رانَ عليه السواد الذي ترمي به الأزمنة الحديثة ما سبقها من أزمنة، على الحاضر دومًا أن يتنكّر لها، لكي ينجح في إثبات حضوره.

جُلُّ الرجال الكبار الذين قرأتُ لهم ذكروا العرب بشكلٍ تعيس جدًا أستثني الرجل

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الكبير.. الكبير جدًا.. الكبير جدًا جدًا غوته. غريب رأي غوته. أبدًا لم أفهم لماذا أبدى تجاههم كل تلك المودّة وكل ذلك الاحترام.. وإن كان ما كتبه هير بتهوفن حوله وحول دبلوماسيته العميقة الراسخة يجعلني مُتشكّكًا في أمره دائمًا. يبقى أن الجميع يكره المسلمين والعرب، عدا واحدًا لا أثق كثيرًا في رأيه. مسيو ألفونص دي لامارتين. رجل سياسي وصولي. لا ثقة في كلامه.

العرب. أمة بُنث حضارة كبيرة ابتلعتها أوروبا وآسيا، ولم تنتبه لكي تبني في بلدانها أشياء كالتي في إسبانيا وفي جنوب الإمبراطورية الروسية. غريب أمركم أيها العرب. (أحفاد إبراهيم أعداء الحضارة) كما كانت تقول أمي المسكينة".

توقفت العربة بكارل ماركس أمام الفندق الجديد فيكتوريا، راقَ المنظر للضيف الكبير لمدينة الجزائر فقرر تغيير محل إقامته من فندق الشرق إلى إقامة فيكتوريا.

دخل مُتكئًا على عصاه "بشكلٍ يوحي بالانتماء إلى طبقة معينة" كما كان يقول صديقه فريدريش إنغلز لإغاظته. وكان أول ما راقه في الفندق حجمه الصغير. بناء جديد نسبيًا بطراز قديم. بدا له أنه قد رأى ذلك التصميم مِرارًا. وبدا له أنه طراز قد مَرَّ به في إنجلترا، لا في باريس، رغم القرابة المنطقية بين طرازَي الجزائر وباريس أكثر من القرابة مع الإنجليز.

- آمُل أن يروقك هذا الفندق الصغير.. أخشى ألّا يكون في الحجم الذي يوحي به اسمه!

- الملكة فيكتوريا؟ ستموت هي ولن تموت الخدمات الجيدة في الفنادق الصغيرة يا عزيزي..

كان القاضي ألبير فيرمي المكلَّف رسميًا باستقبال الفيلسوف الكبير من قِبل حاكم الجزائر، بتوصية من السيد لونغي صهر ماركس الفرنسي النافذ في الجهاز السياسي. مكانة عليا خوّلها لفيرمي مستواه الذي يسمح له بالنقاش مع العظيم كارل ماركس، وكذلك ذلك الاعتبار الذي يرتبط دائمًا بعُسر التعبير عنه، الروابط العبرانية..

"أنت تفهم طبعًا"، كما قالها الحاكم بحرج مصطنع.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كان الحاكم يعلم أن زوجة فيرمي وعائلتها يهود مثلما هي أصول السيد ماركس، وهذا سيسهل كثيرًا إنجاح رحلة ماركس الاستشفائية التي كانت تشبه كل شيء عدا رحلة استشفائية، ففي زيارات كهذه غالبًا ما يغيب السبب الأساسي خلف جمهرة من الاعتبارات الجانبية.

- يبدو أن العالم يتغير إلى لينٍ معين.. إلا أنت أراك تبقى مُحافِظًا على مبادئك التي تزداد تعنُّقًا فتصلُّبًا بمرور الزمن..

سلم ماركس على مضيفه الأنيق فاركًا لحيته، ومفكرًا في الطريقة المُثلى للرد عليه دون فتح باب لنقاش لا بد أنه سيطول كثيرًا فيجهده:

- المبادئ فَخّ لذيذ.. كثيرًا ما نراجعها ذهنيًا دون أن نرجع إليها فِعليًا ولا أن نراجعها جدّيًا.. وكما تقولون أنتم الفرنسيين: علينا أن نجد لنا سببًا مناسبًا.

قال ماركس ذلك وابتسم بتوتره الاعتيادي. لم يَكُن ينتمي إلى حزب المبتسمين. روح المزاح عنده كانت أقرب إلى التنابز بالألعاب الكلامية، على الطريقة التي أَلِفها مع توأم روحه فريدريش إنغلز ومع رفقاء الكلمة، ثم مع رفقاء الغربة ومعارف السنوات الأولى في تريف وبرلين.

كان يعتقد أن السنوات ستتقدم به صوب نوع من الانشراح وغلبة روح الدعابة، ولكن التجهُّم تعنَّق وصار لصيقًا به، خصوصًا منذ بداية مسلسل الموت في العائلة. لا نظرية تستطيع علاج قتامة الموت. تجهُّم اضطراري يسكننا بلا طلب ولا استئذان.. "عبُوسُك الرائع واحد من ملامحك الأكثر جمالًا حبيبي". منذ شهرين لا يفارقة صوت زوجته جيني أبدًا.

التجهُّم أيضًا فَخّ لذيذ نتعود عليه..

- هل يوصي مسيو ماركس بطعام بعينه؟

- السمك.. الخضار.. القمح.. وكل ما يأكله الأهالي.. الطعام روح المكان.

- كارل ماركس يتحدث عن الروح؟.. عجبًا.

كانت حركات المضيف تنمُّ عن احتفاء مبالَغ فيه. ودّ ماركس لو يطلب منه الاقتصاد في تعابير المودّة والانشراح، ولكنه خشي أن يجرح بذلك شعور مضيفه.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- سنقول إن الطعام جوهر المكان كما كان سيقول صديقي اللُّدود هيغل.

شمس مبالغ في ضيافتها كانت تزين ذلك النهار من شهر فبراير. شهر كان يكرهه بسبب اللائحة الطويلة من الموتى المحيطين به الذين اختاروا فبراير شهرًا للرحيل. فبراير هو الوجه القاتم الذي يظهر فيه شهر ديسمبر على مرآة رأس السنة. ديسمبر اللعين الذي أخذ منه جيني الزوجة الحبيبة التي..

هل تكفي جيني كلمة مثل زوجة؟

ليست جيني امرأة فحسبُ، بل هي مفهوم فلسفي قديم لم تبُتَّ فيه العقول بعد.

كان يكره شهر فبراير ثم أضاف إليه ديسمبر الذي درج على محبته. شهران ارتبطا منذ سنوات طويلة بالمرض. تلك الحساسية في الجهاز التنفسي التي تتناقلها العائلة كلها جيلًا بعد جيل. مع تهديد الكلمة التي تتردد لتفسير موتهم "فيرشفيم إن".. كلمة على الجميع نسيانها بدلًا من التركيز عليها.

- عليكم أن تشكروا الله إن وجدتموه فعلًا على نعمة هذا البلد الماء والخضرة والشمس.. البحر والجبل والحرارة المناسبة للجلد.

رشقه فيرمي بطريقة المحامين لا القُضاة:

- أما أنا فعليَّ أن أشكر رئيس الحكومة السابق إيميل أوليفيي فهو الذي توسّط لي لكي أتمكّن من دخول سلك القضاء.

توقف لحظة وماركس يرشقه بكل ما أوتي من انتباه.

- كما تعلم، أنا كنتُ من أشد الصحفيين والسياسيين شراسةً في مهاجمة الإمبراطورية الثانية. بعض المقالات التي كتبتها جرّت ويلاتٍ كثيرة حتى حسبت نفسي لن أنجح أبدًا. تصور أن يتم سجنك في إطار قضية رأي مكيفة كقضية سياسية. يُفترض أن تُعاقب شر عقاب. ولكن ذلك يتأخر لكي تأتيني حَمَامات الجزائر البيضاء بنبإ إلحاقي بسلك القُضاة في الجزائر..

تذكّر ماركس شبح نينا وشبح جيني ابنتيه اللتين تركهما غير مطمئن على حالتهما لا الصحية ولا المالية.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

"ماذا لو أكون على خطأ؟"

عاد إلى صاحبه بسرعة لكي لا تستغرقه صور البنات:

- الشمس عندكم لا تبخل أبدًا..

- الجزائر كلها أرض شديدة الكرم سيدي. سترى ذلك بأم عينك.

- تلك حال المستعمرات دائمًا إذا ما تأملتها العين النهمة للمستعمر.

راودته الفكرة، ولكنه لم يُرِذ قولها. لم يَكُن يخشى رأي هيغل. كان يتأمل وجه مُضيِّفه الجميل المتناسق وهندامه المستوِي. البدلة البُنيَّة الأنيقة. الياقة الباريسية ذات الشراشف، القُبَّعة الوبرية البُنيَّة المنقطة بالأسود.

- سيروقك الفندق كثيرًا سيدي. وأنا في خدمتك، سأكون رُفقتك في أغلب الأوقات وسألتقي بك للعشاء كلما أردت ذلك، ما عدا حينما تفضل التفرغ للعمل أو الراحة أو حينما تفضل التخلص مني ومن مناقشاتي التي لا تنتهي حول الكومونة والجمهورية والإمبراطورية الثانية وكُتُبك التي أعرفها وتعرفني.

- ليتني أستطيع العمل كما كنتُ من قبل!

طلب ماركس ساعات المساء المتبقية للراحة والنوم قليلًا، بسبب كونه لم يُغمض جفنًا طوال ليلتين متتاليتين. ليلتان قضاهما على ظهر الباخرة المدعوة "السعيد" التي قطعت الأبيض المتوسط في أقل من أربعين ساعة، وذلك بفضل غرفتَي المحركات القوية الصاخبة التي تضافرت مع الرياح القوية كي تمنع ماركس من النوم، هو المريض الذي يتنفس بعُشر والذي غالبًا ما ينام بعُسرٍ شبيهٍ بعسر التنفس.

داء التهاب الجَنبَة الذي هو مصاب به من قبل أن يولد، داء مزعج أكثر من كونه مؤلمًا أو خطيرًا.

- أنصحك بالكوت دازور أو بالجزائر سيدي. فيهما شمس ومناخ معتدل على مدار السنة، أمطار نادرة ورواق في الجو ممتد باستمرار. أنا على يقين أنك ستتعافى.. أو على الأقل تتحسن حالك في انتظار تغيُّر جهامة السماء اللندنية. عليك بالجزائر ولو لأشهر قليلة. حتى شهر يونيه مثلًا. حينها يمكنك أن تعود إلى لندن وأنت أقوى

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بكثير. البقاء هنا قد يُودِي بحياتك!

بدت كلمات الدكتور دونكين مثل الحكم النهائي في محكمة لا تقبل مرافعةً ولا استئنافًا..

كان ماركس قد جرب مِرارًا صلابة قرارات الدكتور دونكين ودقة آرائه، ما اتبعه منها غالبًا ما سار به في اتجاه الشفاء والراحة، وأغلب ما عارضه منها انتهى بكارثة صحية أكيدة. ومنذ وفاة جيني سكنه رعبٌ كبيرٌ من إمكانية تحقُّق المبدأ الميتافيزيقي القديم القائل بأن ملاك الموت يعمل على استرداد الأرواح بالتسلسل، وأنه نادرًا ما يأخذ من العائلة نفسها شخصًا واحدًا ثم يذهب بعيدًا. "ها قد صرت أحمقَ كأولئك الذين دافعت عنهم بحجة أنهم لا يفهمون شيئًا وأنهم يحتاجون لمن يُريهم الطريق"..

لم يشعر ماركس إزاء الفكرة بأي شيء خاص.

كان يعاني لأيام طويلة وكانت حياته العلمية والفكرية تكاد تنعدم، لذا كان مُرحِّبًا بأية فكرة فيها وعد ببريق أمل.

تمنى أن يرى البنات ولكن مساره كان غير مسارهن. فرنسا أكثر مطرًا في شهر فبراير من إنجلترا، لذا فإن أي تغيير لقطار أو تأخُّر في محطة وإصابة بأي بلل قد يعود به إلى الخلف ويُفقده كثيرًا من هوامش الشفاء.

- يمكنك أن تعتمد على تبادل برقيات مع صِهرك وكفى.

من القطار إلى القطار إلى الباخرة إلى الجزائر المشمسة رائقة الجو.

كان ماركس يستغرب سلطة خطاب طبيبه، كان متعودًا على الحديث بحماسة كبيرة تفوق بأضعاف كثيرة حماسة أي محدث آخر. وكانت جيني خفيضة الصوت، لذا لم يجد طوال حياته مَن يتسلط عليه بالكلام عدا الملاك المنقذ قصير القامة أشعَر الذراعين الذي كان أمامه، ذلك التركي في مظهره الإنجليزي والساكن الأصلي في كل ما بقي، ذلك المدعو ببلاهة كبيرة د. دونكين وكان يحدث لماركس أن يتوقف أثناء سماع الاسم عند دونكي ليصبح الطبيب حمارًا.. ولكنه لم يفصح بهذه الدعابة حتى لصَفيّه ومستودع أسراره فريد.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

جيني الحاضرة صوتًا وروحًا. كلما خلا إلى نفسه قليلًا جاءه صوتها يقول شيئًا. قد يسكن المرض لسنوات جسم المريض إلا أنه لن يشبه الموت أبدًا. الموت مرض بقناع إغريقي يقف حاجزًا بين الواقع والخيال.

كانت عادتُها هي أن تبادره بسؤال حول واحد من كتبه الموضوعة أعلى ركام الكتب أو بجوار السرير: .. "كيف يمكن للتاريخ أن يكون مرتبًا حسب سَبَبيَّة وعلّية عالية، ثم لا يُحيل على أي شيء..؟ أحب أسلوبه وقوة تفكيره ولكنني لم أتجرع هذه الفكرة لدى شوبنهاور هذا".

ليست الصدفة ولكن كتاب شوبنهاور "العالم كإرادة وتمثّل"، الذي كان مفتوحًا على المكتب هو الذي أوحى إليها بالفكرة كالعادة.

تذكّر صدفةً اعترافًا غريبًا مفاده أنها قد كتبت له رسالة فيها قصيدة.. وحدث أن حفظ القصيدة وظل يرددها مرارًا. ومرت سنون طويلة من ترتيلها واستعادتها بين الحين والآخر قبل أن تفاتحه بأن القصيدة كانت اقتباسًا لقصيدة غير معروفة بشكلٍ واسع لجوته. وأخبرته بمزيجٍ من الحرَج والراحة بأنها قد عاشت رعبًا متكررًا كبيرًا من أن يرتلها ذات يوم على مَن يعرفها فيكتشف الاقتباس الفَجّ وتكون فضيحتها كبيرة.

لم يخبرها بأنه كان يعرف القصيدة الأصلية.. وجعلها تعيش ارتياحًا حقيقيًا. ظل مُحافظًا على ابتسامة عاشقة يوم أن فاتحته بسِرّها الخفيف الثقيل: "كَم أنا مرتاحة لتخفُّفي من هذا السر السخيف الذي أزعجني أكثر مما يجب بكثير!"

أجابها ببساطة غامضة: "أنا سعيد لكونك سعيدة ومتخفف مما يُثقلك أيضًا.. ".

جيني كانت الممثل الرسمي للهواء والأوكسيجين في جمهورية بيت آل ماركس المصاب بأمراض الجهاز التنفسي، كانوا ثلاثة في عائلته يشتكون من التهاب الجنبة، وربما يكون ابنه الأكبر مات من هذا المرض الذي لا تناسبه لا برودة الألزاس، ولا رطوبة الشقة الباريسية ولا الجَوُّ القاتم البارد لمدينة لندن.

كانت جيني مشرقة تستدرج الشمس حيثما حلّت. كانت كالهواء وكالشمس تمامًا، الجميع يعرفهما، والجميع يعيش بفضلهما ولكن لا أحدَ يتحدث عنهما بالقدر الكافي، أو حتى يشعر بأفضالهما إلى أن يغيبا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لم يتصور أن تغيب جيني يومًا.

قد يغيب الهواء ولكن جيني لا تغيب؟

صدفة كبرت الجدران حوله، واتسعت الأمكنة، فازداد صمتها ثقلًا وتكاثرت قتامتها. حتى فندق فيكتوريا كان يبدو أوسع مما يجب، رغم أنه في الحقيقة ليس واسعًا كما كان يتوقع ولا كما كان يخشى. بناء جديد أو ربما يكون قديمًا نسبيًا، حميمي إلى درجة كبيرة بفضل سياج الأشجار، الأوكاليبتوس والدُّلب اللذان لم يَكُن يتصور أنه يمكنهما أن يتجاورا بكل تلك الأريحيَّة وكل ذلك الجمال. مركز ساحة البناية نافورة صغيرة وبعض النبات الذي يجعل الجو بعيدًا عن أوروبا المتمدنة، التي تعوَّد ماركس أن يقصدها للسكن والدراسة ثم العمل، رغم أنه كان يكرهها.

في الأمسية الأولى كان ممتلئًا بالحزن الذي قلَّما يفارقه على فقدان جيني. جيني التي لم يعُد يملك منها سوى تلك الكراسات الغريبة التي دوَّنتها مُؤخَّرًا وهي تقاوم مرض الكبد. كراسات كانت تقول فيها كل ما يخطر لها على بال حينما يسمح لها المرض بأخذ إحدى الوضعيات التي تُمكِّنها من الكتابة. ولربما تكون أملَت بعض ذلك الكلام على الممرضة ليزي التي كلَّفها الملاك إنغلز برعايتهما، والتي كانت لا تفارق جيني إلا قليلًا.

فتح الصفحة الأولى وجعل يقرأ، وشيء ما يمزق أحشاءه فيما عيناه تقاومان الدموع محاولتين قراءة ذلك الخط الذي يعرفه أكثر مما يعرف أي شيء آخر.

.."لا أدري ما قيمةُ ما أقوله؟

أساتذتي في برلين وأصدقائي، من البافيار إلى رينانيا إلى لندن وستراسبورغ، سيقولون إن السنوات أو ربما المرض قد أذهبا قواتي العقلية. أنا، أنا التي كنت ذات يوم أذكر على أنني مرجع كل فكرة عميقة أو دقيقة أو رقيقة.. جيني فيستفالن العبقرية، لقب أطلقه عليَّ أعظم الأساتذة الأحياء والأموات: هير بوخمان.. رجل خُلق من الكتب وللكتب كما يدل على ذلك اسمه.

أنا، ذات النظرة الثاقبة. المرأة التي تزن ميزان عشرين رجلًا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

خطّي كان الأجمل. فهمي كان الأعمق.

كتاباتي كانت نموذجية. ومن أساتذتي مَن كان يعلق أوراقي على الأسوار حتى يقرأ الجميع اسمي.

كان أبي يطلب رأيي في كل أمر. كذلك أخي الذي كان يكبُرني، وهو من هو في الدولة البسماركية، كان إذا تشابه عليه بقر السياسة سألني كأنني مستشارة على علم بكل ملفاتهم المليئة بالتفاصيل والأسرار.

كل ذلك قايضته بالأولاد.

الأولاد مشروعي الكبير. الأولاد وأبوهم، النبي الذي يعلن دومًا بأنه لا يؤمن بالآلهة المتوافرة في السوق الأوروبية.

أذكرها دومًا تلك الجملة التي انتقلت بسرية ونجاعة من لسان أخي البارون إلى لسان صديقنا ورفيقنا فريديريش إنغلز.

إنغلز الرائع.

"إذا تشابهت عليك الأمور اسأل جيني ماركس".. أليست هذه هي جملة الصديق فريد الشهيرة؟

أيييييه كَم أحنُّ إلى تلك السنوات الرائعة.. كنّا نقرأ ونكتب، ونختفي من أخي الذي كان يريد التفريق بيننا. كنا نحلم دومًا بتغيير العالم في الغد القريب. وكنا نؤمن بذلك إيمانًا قويًا. غير صحيح ما قلته ذات يوم في حق أخي المسكين: المسكين لم يَكُن يريد الزَّجَّ بك في السجن..

كنت أنجب أولادنا وأنا أملي على "أنّا" أو "مادشن" بعض كتاباتي الجميلة الحبيبة تلك. كانت سنوات رائعة. كان بيننا نبض جميل متواصل. تمرض فأصاب بالحُمّى وأنت على مسافة أسبوعين مني. أُصاب بالقلق فتصلني بعد يومين أو ثلاثة رسالة منك تخبرني بما كان مصدر قلقي في حينه منذ يومين أو ثلاثة.

كنت رائعًا وأنت تعارض ماديتك الشهيرة لأجل الحب. كنت تؤمن بتواصُل الأرواح. وكان هذا التواصل منافيًا لكل ما تؤمن به من مادية تعلم مثلي، وتعترف دائمًا، بأنها لا تجيب عن كل الأسئلة، ولكنها أفضل صيغة وصلها التاريخ والفلسفة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لتجنيبنا تناقضات هيغل التي هي تناقضات تاريخ الفلسفة كاملًا مجتمعًا في ذهن جبار واحد. هيغل الذي وصفته بأنه تمامًا مثل بحيرة فيكتوريا بالنسبة إلى أخطاء التقدير.. إليه يفيء كل العالم الفلسفي ومنه ينحدر نهر "نيل" الخطأ، أكبر أنهار التهافُت البشري.

كنتُ تحبُّه بفظاظة. هذه هي حكايتك مع هيغل. وهي نفسها حكايتك مع برودون..

هيغل وبرودون مثّلا كل ما أحببته لكنهما لم يمثلّاه بالقدر الكافي بالنسبة إليك.. من يستطيع إشباعك أيُّها الغول؟

منذ نصف قرن تريد كسر عنق التاريخ. نهاية التاريخ. نهاية الإنسان. البَتّ الجذري مع الماضي. التخلُّص من التناقض البشري الذي تمثله البُرجوازية خير تمثيل.. كلها عناوين كنا نخافها في دخيلتنا. كنا نُماشيك على وَجَل.. مع تشكُّك مستمر في نجاح المهمة.

تعرف ما أفكر فيه؟

أعتقد أن الحبّ، وهو واقعة بعيدة عن ماديّتك المحدودة هو وحده القادر على كسر عنق التاريخ. ما رأيُك؟

ستقول لي كعادتك: لقد صمتت عالمة الاجتماع لكي تتكلم المرأة المولعة بالروايات الحالمة، والأشعار التي يكتبها مرضى القرن التاسع عشر الذين أفسدت المدن والمصانع صدورهم بالدخان والفحم..

هل تعلم بمَ أفكر يا ماركسيّ الحبيب؟

أفكر في أنه لو قِيل إنني مجنونة فإنني سأشعر بسعادة كبيرة. تعلم لماذا؟ لأنه نفس الكلام الذي كان سيُقال في حق طوماس دو كوينسي.. كاتب حبَّبني فيه ولعُ أبي به.

أعلم أنني عشت دومًا على حافة الجنون.

حياة بين بين.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

حياة حدّية لا تعرف المهادنة. لكنها حياة لم أندم فيها على يومٍ مَرَّ بي.

لم أندم على التأنُّق الذي كنت أراه وأحسد الإنجليزيات عليه. القصور. الأطعمة الفاخرة. الحفلات المدنية التي استُثنينا منها تدريجيًا حتى صرنا أجانب عنها، وأجانب عمومًا على هذه الأرض التي وهبناها عمرنا.

الغربة المزدوجة أسوأ من الغربة البسيطة. المغترب يحلم ولو مجرد الحُلم بالعودة إلى الوطن، أما نحن فكنّا نحلم بألّا نعود إلى الوطن. وقد صنعنا من المهجَر وطنًا. ولكننا انتبهنا إلى أن النوع الذي ننتمي إلى سلالته غريب بالضرورة عن دياره، يشبه تمامًا الأنبياء (أعلم أنك لا تُحبِّذ هذا التشبيه، وأنك تكاد تضحّي بلحيتك لأنها تُلحقك مباشرةً بسلالة الأنبياء التي ثبّتها مايكل أنجيلو من خلال رائعته حول النبي موسى، تلك اللُّحيَة النبويَّة الكثَّة التي اجترحها وهو يحقق في لحظات عبقرية نادرة تصوره الفني لمنحوتة نَبيِّه).

عشت في مَهمَّة واضحة: الحرص على سعادة زوجي النبيّ المبشِّر بعالم جديد. وكنت أشعر بكلماته العميقة: نحن نعيش نهاية تاريخ وبداية تاريخ آخر.

كنت أقرأ أحيانًا العهد القديم بحثًا عن زوجات الأنبياء القويّات.

أعلم ما ستقوله: المرأة أفقدَها المرض كبدها وعقلها.

لا حبيبي.

حبُّك وحده أفقدني عقلي. ولا كبد لي سواك يا كبدي الذي لا مرارةَ فيه.

قد يكون كل هذا ناتجًا عن كثرة تناولي للمورفين. ذلك المهدِّئ الرائع. شُكرًا للرَّبِّ الذي لا تؤمن به على نعمة المورفين حبيبي. تلك المادة التي ساعدت كثيرًا العباقرة المتغربين اللامنتمين في قرننا هذا: بودلير وإدغار آلان بو وطوماس دي كوينسي.. وخاصة الرائع نوفاليس.. نوفاليس الذي قضى عليه مرضك الخبيث نفسه.. نوفاليس الذي كان يفكر في موسوعة لإعادة ترتيب كل شيء في العالم. كنت تظلمه وأنت تقول إنه مُتديِّن، وهذا ما قضى عليه.

لا حبيبي.

الموت مشروع خارج عن إرادتنا. مشروع لا تفسره ماديَّتُك العمياء أيُّها النبيُّ

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المتنكر للطبيعة.

أشعر بأنها أيام قليلة وأختفي.. فيرشفيم إن.. كنتُ تخشى على بناتك وأهلك من ذلك المرض اليهودي فإذا بك تختار بروتستانتية نبيلة من آل كامبل.. سليلة جورج كامبل، وقريبة جون كامبل الآمرّين الناهيين في اسكُتلندا.. وأخت الوزير الأقرب إلى بيسمارك.. وبدلًا من أن تستفيد من وضعك هذا هاأنتذا ترثُ مرض الاختفاء اللعين هذا.. فيرشفيم إن.. داء الجهاز التنفُسي الذي قلّما ينجو منه أحد ولو بعد حين.. لعنة لا شكّ فيها.. لعنة تحتاج إلى الإيمان بإلهٍ ما كي تفسرها.. أليس كذلك؟

دَعْنِي من المرض. كبدي بخير رغم ما يقوله الأطباء. الكبد الذي هو أنت يا كبدي لا خوفَ عليه.

أفكاري الأخيرة أريدُها سوسيولوجية. السوسيولوجيا علم المستقبل. لا يغرّنّك الإقبال على علوم المادة والمعادن والطب، فتنة قرننا العظيم هذا. المستقبل سيكون لتحليل سلوك الإنسان، لمعرفة نفسه من خلال وصف أفعاله. ربما يأتي يوم يُبرمَج فيه الناس مثلما يُبرمجون اليوم عن طريق عبادة السِّلَع الفيتيشية كما تسميها أنت.

الإنسان الأخير على الأرض سيفعل شيئًا للرفيق الوحيد المتبقي معه، ويتأمل سلوكه وردود فعله، ثم يصف ما فعله بلغة علمية منظمة ممنهجة مع توابل اصطلاحية مما تحبه العلوم.

هكذا سيكون الوضع قبل انطفاء البشرية النهائي. علم الاجتماع هو علم المستقبل بلا منازع. ربما ستعيش بعدي قليلًا وقد تؤكد لك السنوات القليلة المقبلة صحةَ ما أقوله.

انظر إلى ذكاء العصور المتتالية. إلى أين ذهب؟

سؤال مُحيِّر فعلًا. فنحن نكتب كتبًا كثيرة أغلبها لن يظلَّ على رفوف مكتبات الناس إلا عشرين أو ثلاثين سنة.. المعرفة الحقيقية تتحول إلى سلوك يسلكه الناس لا إلى دروس في جامعات تقدس العلم وتضطهد العلماء.. لهذا أرى أن علم الاجتماع أهمُّ من باقي المعارف الأخرى، ولهذا أعتقد بأن الفلسفة تربح قليلًا لو التصقت أكثر بالعلاقات بين الناس، أكثر قليلًا على كل حال من عكوفها على

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

العلاقات "الجَدَليّة" بين الأفكار على مَرّ الأزمنة.

الفيلسوف المعاصر يتأثر بأمراض جيرانه، بالمناوشات التي يشهدها في محلّ عمله وبين معارفه، أكثر من تأثره بما حدث بين ديمقريط وخصومه الذين كانوا يغارون من قدرته على توصيل أفكاره الجميلة لجمهور واسع من التلاميذ، في حين يعاني غيره ويبوء بالفشل والنُكرَان.

"الجدلية" كَمْ أكره هذه الكلمة لدى هيغل!

ومن تعاستي الكبرى ألّا يروقك في هيغل إلا هذه اللفظة الكاذبة على الحياة. أو المبالَغ في حجمها على الأقل.

المفكرون الناجحون كلهم ظلوا قريبين من الجماعات البشرية. يتأملون عقليًا من صلب الحدث الجماعي.

في فرنسا لن تجد أفضل من لابي سييس وجان جاك روسو.. الأول رجل دين ورجل دولة ومفكر حُرّ، والثاني شاعر مُنظِّر ومُفكِّر حُرّ من طراز نادر. ليسا فيلسوفين ولكنهما أنارا دروب الفلاسفة صوب الثورة الفرنسية. هذا الحدث الذي يبدو أنه أجمل ما حدث منذ دخول العرب إلى إيبيريا.. لو كان لي أن أدرِج أحدهما أو كليهما في نوع من الأنواع لأدرجته ضمن علماء الاجتماع لا الفلاسفة".

ترك ماركس كراسة جيني. كان تنفسه قد بدأ يصعب بسبب هيجانه وهو يقرأ كتاباتها، ويتذكّر صوتها وشكلها وحركات رأسها المسرحية، وبهجتها الكبيرة التي تشبه عُزسًا بحجم الكون.

ترك الكراسة واستلقى في الغرفة خافتة الضوء يفكر في إمكانية أن يراها مرةً أخرى.

كان كثيرًا ما يحلم بها منذ ثلاثة أشهر أو أكثر، فصار يحنُّ إلى لحظات النوم لأنه على يقين أنه سيلتقي بها بعد غرقه في النوم.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تدير الفندقَ الصغير الأختان "أليس". حَسِبَه لأول وهلة اسم إحدى الأختين ثم فهم بأنه لقبهما وأنهما تفضلان مناداة كل منهما باللقب، وهو ما يُسهِّل المهمة على النزلاء الخمسة الذين كانوا هنالك، عجوز أميركي يُدعى فريديريك براون جاء بحثًا عن العلاج وعن أعشاب يُقال إنها لا تنبت إلا في التل الجزائري، ورجل وامرأة، جورج كانطي وشقيقته بلوندين، أخَوَان من منطقة الفوندوم جاءا لزيارة ابن بلوندين الهارب إلى الجزائر دون ترك أية أخبار، والذي لم يجدا مكانه.

"هو يختفي عنهما لأنه غيَّر تفكيره.. الحقيقة أنه أصبح مُسلمًا ويدَّعي الجنون لكي يبرر أنه يركع ليقبِّل السجَّاد في مكتبه البريدي بمنطقة القبائل أين ذهب الأخَوَان ولم يجداه.. ويبدو أنه كان هنالك واختفى عنهما عن قصد حينما علم بمجيئهما، بتواطؤ مع بعض الأهالي الذين يحبونه جميعًا"..

ذلك مما قالته السيدة روزالي التي هي الأمُّ الروحيَّة للمكان، خادمة أو عاملة أو مسيرة.. لها منصب مُهِمّ في البانسيون الصغير يجعل الأختين أليس تقولان: "انظر مع روزالي" إذا ما طلب أي شخص أي شيء، ولو كان المطلوب هو وحش اللوك نيس!!..

مدام روزالي لم تكُن تفعل شيئًا لأن صافية الخادمة العربية التي لم تكُن تتكلم أبدًا هي التي كانت تفعل كل شيء.

كانت السيدة روزالي تُذعن للأختين أليس إذعانًا متجبرًا بشكلٍ مثيرٍ للحيرة.

- صافياااا.. كوب ليمونادا.. سريعًا.

كانت صافية شابَّة تلبس التعاسة والصمت بشكلٍ يُنسي المتعامل معها بأنها نائليَّة جميلة جدًا. ولم يَكُن المنديل البُني الذي لا يفارق رأسها يقدر على تغطية جدائل شعرها الفاحم الذي يشي بجمال كبير.

- صافياااا.. تعالَي أخرجي هذا القط اللعين.

مما ترويه عنها مدام روزالي أنها قد تزوَّجت برجل من الصحراء.. تاجر عربي اتخذها زوجة ثالثة أو أكثر من ذلك، ولما لم تنجب بعد عام اتهمها بالسحر والشَّعوذَة كما قيل له عن أولاد نايل، فلما أنجبت له بنتًا تأكَّد من التهمة، لأنها

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

من المفروض ألّا تلد، وها هي ذي تلد امرأة، والمرأة دابّة الشيطان كما قيل له.. النتيجة هي أنها قد هربت إلى العاصمة ودخلت في أزمة صمت مستدام، إلى أن نصحت بها إحدى الخادمات البرتغاليات الشهيرات في الأوساط الأرستقراطيّة في الجزائر للسيدة روزالي، لكي تقنع هذه الأخيرة السيدتين أليس بما أخبرت عنها به البرتغالية التي كانت تأويها في بيت غريب "يبدو أنه بيت للمتعة". كانت صفتها الأساسية هي "النظافة".

- عربية نظيفة؟.. إما أنها غير عربية أو غير نظيفة!

علق الأميركي الذي كان جالسًا على جِدّة يستمع إلى السيدة أليس الكبرى وهي تتحدث متمتعةً بمقاطعة روزالي، للإدلاء بمعلومات حول صافية، في الأصل، روزالي هي التي لملمتها.

كانت النظافة في نهاية الأمر هي فضيلتها الثانية لأن فضيلتها الأولى هي الصمت المُطبق كما لاحظ ماركس.

سألت روزالي مستعيدةً الهيمنة الضائعة منها على عرش الحكايات والأخبار:

- أليست الخادمة التي لا تتكلم أبدًا نعمة كبيرة مسيو ماركس؟

- لا.. على الخادم في رأيي أن يشكو سوء المعاملة.

- لا.. أبدًا ومستحيل مسيو ماركس.. سوء المعاملة نالتها من زوجها العربي الصحراوي الذي أراد أن يتهمها بالجانّ أو الجنون أو الشعوذة.

- الخادم الذي يشكو يتحسّن وضعه، فتتحسن خدماته بالضرورة.

كان ماركس يدري بأنه لا أمل يُرجى من نقاش جادّ مثل هذا، مع امرأة قديمة الطراز محدودة العقل مثل مدام روزالي، ولكنه قد تعوّد أن يقول ما هو مقتنع به، دون أن يأبه لمن يستمع إليه أو يقتنع برأيه.

كما كان يلاحظ أن الخادمة النايلية تتحرك كثيرًا ليلًا. أحيانًا يدخل المطبخ لشرب كأس من الماء أو يقصد البهو الذي تبقى فيه شعلة الموقد حية دائمًا فيلاحظ لصافية حِسًا ما.. يتحسّس خُطاها وهي تتحرك دون أن يراها في أغلب الأحيان. يكتفي بأن يحترم طريقتها في التواجد دائمًا والحركة والعمل دائمًا كأنها

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لا تنام.

"كُلٌ وأسلوبه على كل حال".

ثم يأتي، على لائحة النزلاء، الضابط المتقاعد ماكسيميليان شوز. البحّار المُتعَب من السفر في الخامسة والأربعين. إسباني مُتجنِّس بالجنسية الفرنسية، يذكر في كل المناقشات بأن لقبه الأصلي الذي غيَّره لأسباب لا يستطيع أن يدلي بها هو إتشيبيري، وهو لقب موجود في جبال الألب بكثرة فاحشة، وبأن الحدود هي وحدها المسؤولة عن "أسبَنة" نصف العائلة التي هي في الأصل فرنسية، كما توضح ذلك مخطوطات الدَّير القريب من بلدته.

الضابط المتقاعد يعيش في انقطاعٍ تامٍّ يجعل مدام روزالي تتمتع دومًا وهي تقول جملتها المسجوعة: إننا نعلم القليل عن السيد شوز L'on sait peu de choses sur Mr. Chose

كانت لها طريقتها اللذيذة الخاصة لإعطاء الأخبار بطريقة توحي بأنها لا تعلم شيئًا:

- لست من اللواتي يتدخَّلن فيما لا يعنيهن ولكنني سمعت السيد شوز يتحدث بطريقة لن تسرَّ السلطات عن المعارك التي شارك فيها.. لا أدري ما الذي فعله بالضبط ولكنه بالتأكيد ليس جيدًا، وإلا لما كان يرى كل ليلة هذه الكوابيس الرهيبة.. يصرخ حتى يصل صوته صفوف النخيل الحزين هو أيضًا مثل شوز وصافية إلى الأسفل في المصطفى السُفلي.

تساءل ماركس عن المعنى الكامن وراء جملة روزالي. "ما الذي يمكن أن يجمع بين النخيل الذي ترك الصحراء إلى الجوار غير المريح للبحر، وبين السيد شوز الذي ترك إسبانيا متجهًا إلى فرنسا، وترك جبال الألب صوبَ الجيش والبَحريَّة، ثم ترك أوروبا قاصدًا الجزائر، وبين صافية التي تركت كل شيء وراءها لأجل اللجوء الصامت الحزين إلى فندق فيكتوريا؟" فكَّر لحظةً في أن القائمة قد تشمله هو أيضًا.

"الهجرة سُنَّة قديمة مؤلمة من سُنَن البشر".. من مكان بداخله، جاءه بلا استئذان صوت جيني وهي تقول: "أما أنا فلا أفارق وطني أبدًا. وطني أنت أيها النبيُّ

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الجميل".

كانت جيني وطنًا أليفًا مشرقًا. وطنًا متكامل الأرجاء.

كان الفندق في أعالي الهضبة الكبيرة التي تطلُّ على خليج الجزائر فيتصدق عليها بشمس تكفي فرنسا وإنجلترا وجزيرة وايت التي كانت ملجأ ماركس للعلاج، وتكفي ألمانيا أيضًا، كل تلك الأماكن التي ارتبطت في ذهن ماركس بالبرد والضباب والعطش إلى الشمس.

يبدو الفندق كأنه بيت عائلي على الطريقة الأندلسية مع تزيين وتفاصيل بناء تستعيد البيوت الريفية في أقاليم الفاندي والبيري، مع رُتوشات على النوافذ والشرفات فيها روح مباني الألزاس التي نصفها تاريخه جرماني والنصف الآخر فرنسي.

كان فريد إنغلز كثيرًا ما يقول له:

- الألماني ذو الثقافة أو الفلسفة الفرنسية إذا ما ضاقت به ألمانيا ولم يجد مهربًا في فرنسا، كما كان يحدث منذ قرن من الزمان لآبائنا التنويريين عليه أن يهرب إلى إنجلترا.. البلاد التي خلطت العِرق الغولي والعرق الجرماني، ومزجتهما بالعرق السَّكسُوني، مع توابل من روح الفايكينغز، ثم وحدتهم جميعًا تحت راية الروح القانونية المستعدة للتعدُّدية العِرقيَّة للرومان، فأعطت بلادًا متطورة ومنفتحة العقل.

تبدو إنجلترا بعيدة جدًا هنا في بلدية المصطفى، هذه المقاطعة التي تومئ بالشمس الكافية لعلاج كل عَرَض من أعراض الالتهاب الذي يعلن استعداده لسلب آل ماركس واحدًا آخر بعدما أخذ كثيرًا منهم.

- لم أكُن أعلم أن السيدة ماركس لم تعُد في زمرة الأحياء.. وقد فكَّرت في سؤالك ثم ترددت.. أنا أكره من يحشر نفسه فيما لا يعنيه.

ابتسم ماركس للكذبة الضخمة:

- الموت أجمل ما تنجح فيه الحياة. هو في النهاية الشيء الوحيد الذي تقوم به الحياة على أكمَل وجه.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كان يتأمل ذكريات الألم الأخير الذي جعلهما طريحَي الفراش، جيني وهو، منذ شهور لا يراها طيلة أيام كاملة رغم أنه بينهما جداران ورُوَاق ضيق. كانت تغيب عن وعيها مُطوّلًا فيصبح يتمنى أن تتألم قليلًا لكي يسمع أنينها أو تأوُّهاتها فيطمئن عليها.

"أليس شيئًا مُروِّعًا ألّا يبقى لنا من أحب الناس إلا آلامه لكي تربطنا به؟"

استغرق للحظةٍ غير آبهٍ لما تقوله مضيفته الكريمة بالخدمات والكلمات، لكن صوتًا غريبًا استخرجه من أروقة الذاكرة الموشومة:

- الألم ينجح فيما تفشل فيه الأديان: يوحِّد بين الطبقات جميعها.

التفت ماركس صوب الأزيز الخفيف للباب الخارجي الفخم فرأى شابًا غريبًا. شاب طويل عريض أسمر بعيون خضراء ولحية كثّة. شخص كأنه ماركس عربي شاب بعين سلافية.

- لا أصدق أنني في حضرة ماركس.. العظيم كارل ماركس. أنا محمد شوليي. أعتقد أن الدكتور ستيفان قد حدثك عني. الواقع أنه هو من طلب مني أن أعوِّضه اليوم لأنه هو نفسه مريض طريح الفراش.

- لم يحدثني لأنني لم ألتقِ بعد به. أنت يا بُنيَّ أول من يتحدث إليَّ عن الصحة منذ وصولي إلى إفريقيا.

كان الطبيب الملتحي يبتسم بطريقة الأطباء: يمهد وجهه كي يعلن لك، بما تيسَّر من الإقناع، بأنك ستموت وبأن ذلك شيء جميل يهديك إيّاه حظك الحسن.

- أنا سعيد جدًا بلقائك وبفكرة خدمتك إن كنت تسمح بذلك طبعًا. أنا خرِّيج كلية الطب بباريس.

- محمد شوليي؟ كيف هذا؟ محمد وشوليي؟ كيف اجتمعا؟

- عليَّ أولًا أن أقوم بفحصك سيدي.. بعد إذنك.. سأشرح لك ظروف اجتماع محمد وشولييي وأنت ممدّد.

كان ماركس يكره أن يكون ممددًا، ولم يتعوَّد طيلة حياته على التزام الفراش،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تعود تمامًا على جعل الفراش مكانًا لإحدى الميتتين في أقصى حالاتهما، الموت حُبًا والموت مرضًا، وكأنما الحياة أعطته الإختيار فاختار الميتة الأولى دون تردد. وقد نجح في اختياره لسنواتٍ طويلةٍ عريضة قبل أن يبدأ الشبح بزيارته مهددًا بالميتة الثانية.

راقه كثيرًا لباسه الأوروبي، رغم أنه لم يفهم سبب حركاته المبالغة في التواضع. وراقته كثيرًا تلك البُحَّة التي كان قد لاحظها منذ أيام في أصوات محدثيه من الأهالي "لماذا هذه البحة الخاصة؟ لا هي بُحَّة روسية كتلك المشهورة في أرمينيا، ولا هي بحة المرضى.. "كان يقول في دخيلته: "لو كان الرأي رأيي لأدخلت الأهالي جميعًا إلى الأوبرا.. هكذا سنحرر الباستيل مرةً أخرى، وبشكل جذري هذه المرة.. ".

- هيه.. ماذا أحضر لنا طبيبنا العربي عدا الأحاديث حول أعمالي التي أحاول الهروب منها؟ أدوية لابن سينا؟

لم يبتسم محمد شوليي كما توقع ماركس. اعتقدها دعابةً مناسبةً للتذكير بالطبيب المُصرّ على أصله العربي - كما بدا له - .. ابن سينا الذي كانت جيني مغرمة بذكره مرتبطًا بمرحلة الأنوار التي أبعدت ذكره من برامج تدريس الطب بشكل غريب.

- عليّ أن أقوم بمجموعة من الفحوص، وسأبدأ بسؤالك عدة أسئلة إن سمحت طبعًا.

- محمد شوليي أولًا.

- لا.. الفحص أولًا.

أعجبت كارل ماركس النبرةُ الحادَّةُ المغلفة بهدوء الاحترام.

كان فحصًا على الطريقة الأوروبية. كل ما يجب كما يجب. سأله وهو يتحسَّس صدره وعنقه وحنجرته ويستمع إلى خشخشات صدره بسماعة لم يَكُن قد رأى مثلها من قبل، سماعة راقه أن جزءَها المعدني مُغطى بقماش قطني يجعل ملمسها دافئًا على عكس سماعة الطبيب في جزيرة وايت التي تكون باردة الملمس دائمًا. سأله باحترافية أراحته تمامًا عن أوقات نزلات السعال. تواتُرها. النوم. آلام الدماغ.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الحساسية للصوت. عُسر التنفس. مصاحبة السعال للدم. تاريخ المرض العائلي. الأوقات المناسبة للنوم. آثار الحرارة والحمّامات وجلسات البخار. أنواع الأدوية. كَم مرةً عاينه طبيب.. آخر معاينة.. التدابير المنصوح بها من قِبل طبيبه المعتاد.

فحص جذعه الأشعَر المترهل من الأمام ثم من الخلف.

- جميل...

قاطعه ماركس مُصرًا على روح الفكاهة لديه:

- في آخر مرة سمعت فيها طبيبًا يقول لصديق كان مريضًا كلمتك هذه "جميل" تُوفِّي الصديق بعد ثلاثة أيام.. لذا.. أرجوكم.. حاولوا إخراجي من هذه الغرفة الرطبة قبل وصول موعد موتي.

ضحك الطبيب ضحكة عريضة محت في ذهن ماركس تأخُّره عن النكتة الأولى.

- لا أدري ما برنامج مسيو ماركس، ولكنني مستعد لاصطحابه في نزهة لن ينساها إلى منطقة ميتيجة.

لم يَكُن ماركس يعلم إن كان ذلك جزءًا من برنامج الزيارة الذي حضَّره له القاضي المتأنق. فكَّر لحظة ثم تذكَّر بأنه قد أجَّل، وربما ألغى، رحلة بسكرة التي نصحه بها كثيرون بعدما عاين البرودة الشديدة، وفكر بأنه في الطريق إلى بسكرة سيقطع بعضًا من المرتفعات العالية جدًا في الجزائر.. وتردد في اتخاذ قرار السفر، أو حتى إبداء الرغبة في التفكير في الأمر وطرحه على الطبيب، رغم أنه قد أغراه كثيرًا وصف السيد شوز، الذي تحول في فضاء أيام قليلة جدًا إلى رفيق الليل والبيانو والبورتو أو الويسكي أو النبيذ الأحمر في الفندق. أغراه كثيرًا بأنه في حالة التعافي سيزور أماكن كثيرة شهدت الكومونة الجزائرية بشكلٍ ما، ممثلة في صراع الجزائريين ذوي المذهب الديني الشبيه بالاشتراكية لطغيان رأس المال الفرنسي، إلا أنه عدل عن كل إغراء بعدما علم بطول المسافة التي تفصل بسكرة عن فندق فيكتوريا.

صمت ماركس لحظةً متأملًا محمد شوليي ثم أجابه:

- سأنظر مع السيد فيرمي وأقول لك. ولكنني راغب في ذلك بشدة كما تتوقع

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لشخص لم يخرج إلى العالم منذ عام ولا خرج من الفندق منذ أسبوع.

بدت علامات التعجُب فصيحةً على سحنة الطبيب غير المتأنق. ولكنه طرح السؤال:

- الأسبوع أعلم بأمره.. أما العام فلا.. هل يزعج سيدي السؤال عن سبب العزلة من قِبَل رجل تعرفه كل منابر أوروبا؟

توقع ماركس سؤال الطبيب. وقال في دخيلته: "عجيبٌ أمرهم هؤلاء. بعضهم صامت حدَّ المبالغة وبعضهم يقول كل شيء إلى حَدٍّ فَجٍّ تمامًا!"

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

في المساء كان رُفقة فيرمي الذي يختم دائمًا أيام عمله الشاقة بجلسة النبيذ الأحمر رفقة ماركس في بهو فندق فيكتوريا، الذي يبدو كأنه أُعدّ بشكلٍ يدعو فقط للشرب والاسترخاء: ألوان دكناء وزرابيّ فارسية تطلُّ عليها ثلاثة رؤوس لغزلان صيد لم يقرأ ما كتب أسفلها من باب التباهي بالصيد. لم يَكُن ماركس مُحبًا للصيد. كرهه مُبكرًا في غابات رينانيا حينما مات أمامه عمُّه الذي راوده السُعال لسنواتٍ طويلةٍ قبل أن تصيبه رصاصة غبية من صياد متحمس لا يعي أن الصيد مسألة حياة وموت أيضًا. كان ماركس يعشق عمّه جاكوب، المثقف الفنان الرياضي الذي يبدو أن الحياة تطيل العمل على البشر قبل أن تكمل رجلًا مثله وتتكرم على الناس به، رجل يبدو أنه يختزل عشرة رجال في رجل. بكاه ماركس في عزلته مرارًا واتخذ موقفًا نهائيًا من الصيد. وحينما كتب مقالته الشهيرة حول جامعي الحطب في الغابات البرّية الذين كان يعاقبهم قانون بيسمارك، عادًا أن جَمع الفلاحين المسحوقين لأعواد مرميّة أرضًا دون كسر فروع الشجر هو تقليد يعيش عليه هؤلاء المساكين منذ قرون، وهو في المطلق أمر لا حرج فيه، كانت الغابة في ذهنه كثيرًا ما تحيل على الصيد، لا على العَنَت في معاملة مسحوقي الأرض من الفلاحين الذين يجمعون فروعًا متكسرة للتدفئة وللطبخ. هي مقالة مشؤومة لأنها كانت سببَ أوّلِ اعتقالٍ حدث له في حياته، ولكنها مقالة أحبها القراء كثيرًا، كانت تلك هي الأيام الجميلة للهيغليين الشباب، الأحرار كما كانوا يحبون أن يسموا، أيام "الجريدة الفرنسية" الألمانية التي عرّفت الناس باسم كارل ماركس.

Telegram:@mbooks90

- أعتقد أن المسافة بعيدة وأن صحتك تتطلّب الراحة والنوم والدفء في مكان مغلق، أكثر من الترحال في مجاهيل الصحراء.

كان وصف المكان بهذا الشكل مغريًا من جديد.

- ماذا لو..

قاطعه فيرمي:

- أرسلتُ برقيةً إلى طبيبك دكتور ستيفان، وهو ضد الفكرة تمامًا.

استغرب ماركس أن يكون له طبيبٌ لا يعرفه.

- ستيفان مَن؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- ألا تعلم بأمره؟

- أبدًا.

- اتصل به الدكتور دونكين من آرجونتوي وطلب منه متابعتك وموافاته بكل جديد عن طريق البرقيات.

ابتسم ماركس:

- البرقيات؟ لماذا؟ هل سيتم غزو إقليم ما؟ إن هي إلا حالة عُسر تنفُّس والتهاب قصبات عادية. يبدو أن الجسم قد وهن عظمه وأنه بسبب التقدُّم في السن قد أصبح لا يطيق المسيرة. ربما نكون قد حمَّلناه ما لا طاقة له به.

كان ماركس منذ حلوله بالجزائر يقف متعجبًا وهو يتأمل ملامح الأهالي البعيدة جدًا عما تعود عليه بين ألمانيا وفرنسا. شيء ما كان يقف أمام تصور ملامح محمد واسم محمد لكي لا يرتبط بالمبنى العظيم للمدرسة الإمبراطورية التي هي "كلية الطب بباريس"، والتي أخبره فيرمي بأن محمد قد تفوق فيها في دراسته بشكلٍ ساحقٍ جعل الصحافة تتحدث عنه.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- كيف كانت سنواتك في باريس؟

ابتسم الطبيب في الموعد المُوالِي سعيدًا بأن السيد ماركس قد تجشَّم عناء السؤال عنه، وبأنه لا بد أن يكون قد علم بتفاصيل تفوُّقه في دراسته بباريس.

- الدراسة بالنسبة لي كانت مَهمَّة عسيرة جدًا.. على كل حال وفي المطلق أستطيع أن أقول إن كل شيء في حياتي قد جاء عسيرًا يا سيدي.. ورغم أصولي الكرغلية التي من المفروض أن تيسر لي كثيرًا من الأشياء، فقد عانيتُ الأمرَّين كي أصل إلى حيث أنا..

- طبيب متربص بديل.. أليس هذا كثيرًا؟

ابتسم ماركس مُقلِّلًا من حموضة كلماته ومتخذًا له مكانًا من قلب طبيبه الجديد.

- الحياة عندي فارغة تمامًا من المتعة يا سيدي.. مسلسل حزين في ظل ظروف تنبئ بكل ما هو جيد وجميل.. رفع الأثقال الوجودية.. هكذا أقول لأصدقائي دائمًا.

ابتسم الطبيب معلقًا حديثه إلى حين.. ثم واصَل:

- أنا لا أريد إزعاج حضرتك بقصصي المضجرة الحزينة.

- بالعكس أنا أصرُّ على سماعها.. أريد سماع كل شيء.. ولا يهمك الغسر رفيقي القديم.. تعساء العالم هم مسألتي، ومشاركتهم أحاسيسهم هي ديانتي الوحيدة، والتفكير في حلول لهم هو العمل الوحيد الذي يُنعشني حاليًا.. لعلَّني أنسى ما أنا فيه..

اعتدل العربي الكرغلي الفرنسي في مجلسه. كان حذاؤه الجلدي يعاني قِدَمًا معينًا على عكس بذلته الصوفية الأنيقة ذات الأزرار المتقابلة مثنى مثنى. كان وسيمًا رياضيَّ الجسم يَقِظ الحَواسّ والذهن. وكان اسمه محمد شوليي.

"لكأنه خُلق ليكون ضمن جماعة الكومونة!"

- تعرف يا سيدي.. ينتشر عندنا التفكير في أن الملحد هو إنسان شرِّير وفاسد وخطير ولكنني أتابعك وأتقصَّى أخبارك وآراءك منذ مدة.. والظاهر لي من أمرك أن العكس هو الصحيح.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كان الفيلسوف يرغب في الحديث ولكنه يعلم أنه سينفعل ويَعسُر عليه الحديث بلا نزلات السُعال الحاد.

- هل حقًا تعتقد أن الدينَ مركزيٌ إلى هذا الحد؟

- ولكن الفكرة المركزية للدين هي الفكرة الأساسية للشيوعية: الدفاع عن الفقير والضعيف. الفِكر الإنساني كله يدور حول هذا منذ عصر النهضة حتى كتابات رُوسُو.

كان ماركس يحب حماس صاحبه ويرغب فيما رغب فيه طوال حياته الصاخبة: النقاش.. المقارعة بالحجج.. حرب الأفكار اللذيذة.. هدم بناء فكري وتشييد آخر.. النقاش والجدل: جنة الحياتين الفكريتين، الدنيا والخالدة.

- الدين في تصوُّري خُدعة يستعملها الحكام ضد البسطاء. هنالك تصور لم أطوره جيدًا مَفادُه أن شكل الدولة كما وصلنا عبر كانط ثم هيغل هو شكل مشوَّه تمامًا. مصفوفته الأولى هي الدولة الرومانية التي كانت تتقوَّى بخضوع الناس التام لأجل تحقيق سعادتهم. وهذا جوهر الحكم المطلق الذي انتقده هيغل، ولكنه كان يدافع كالتلميذ النجيب عن هذه الدولة الوطنية ذات الإقليم المحدد التي لا بد للناس البسطاء من أبناء الشعب ومن طبقات البروليتاريا أن يموتوا فداءً لها.

- وماذا تقترح لتغييرها مِسيُو ماركس؟

- قلت لك إنني لم أطور هذه الفكرة إلى حَدٍّ بعيد. آه.. نعم. مبدئيًا يمكننا أن نحقق المبدأ الشيوعي بإسقاط اقتصاد الدول المانعة لتحقُّق حُلم جان جاك روسو. خطوة خطوة سيتحقق كل حلم نحلم به بين الجوانح ونخشى عليه من هبَّات النسيم.

مرَّ بينهما صمت مخثِّر إلى حَدٍّ بعيد.

- ولكن أي دين تقصد. هنالك دين سياسي محض هو الكاثوليكية، ودين بلا عمق في الطرح الديني هو الأورثودوكسي، ثم البروتستانتية، التي هي دين تحرُّري لا يُبقي كثيرًا من تعاليم المسيح.. يشبه أن يكون دينَ مَنْ لا يريدون لأنفسهم دينًا.

أبدى الطبيب الشاب استعداده للمقاطعه عدة مرات. ولكنه لاحظ عسر الحديث

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الملاحظ عند ماركس، ونزلتي السعال اللتين قاطعتا جملَه الهادئة الخافتة تلك، فاقتنع بأن الوقت ليس مناسبًا للتوسع أكثر. قال باقتضاب:

- أنا بصدد تحرير مقال حول وضعية الأهالي والقوانين الجائرة في حقهم. سأعرضه عليك يا معلمي، أتمنى أن يكون فيه الوفاء الكافي لآرائك الرائعة التي هي تعمل منذ عشرات السنين على تغيير وجه العالم، وخلق آفاق جديدة لحياة لم يعرفها كوكب الأرض منذ العصر الحجري.

كان الطبيب متحمسا جدًا وهو يجتزئ من جُمَله أهم وأقصر ما ينبغي قوله لكي لا يُتعب مريضه اللامع.

أحس ماركس بفخر كبير وبحماس فائض، ونسي أنه موجود لطول مكوثه بين الجدران بأمر من طبيبه اللندني. دخله ريح يحمل روحًا ثورية تذكّرها بابتسامة فاترة. تذكّر أيام تدبيج البيان الشيوعي والاجتماعات التحضيرية للأمميّة الأولى، وأيام الأحاديث والنقاشات التي لا تنتهي قبل كومونة باريس. تذكّر مئات أو ربما آلاف اللترات من النبيذ الأحمر الفرنسي. نبيذ الجنوب الحلو. ومن نبيذ الألزاس ذي المذاق الحامض المتميز. تذكّر الحماس الذي كان يهيمن على العالم قبل مجيء المرض. هادم جميع اللّذّات. عَدوّ الفرح. شقيق الموت الأصغر.

المرض صديق البروليتاريا لأنه ينتقم للفقراء والمسحوقين حينما يستبدُّ بأبناء الطبقات الساحقة بنفس عنفوان استبداده بالطبقات المغلوبة. ولكنه عَدُوّ الفلسفة، وهذه مشكلة.

جاء المرض وجاء الموت في أعقابه.

لا يحتاج الموت إلى مقاتل يدافع عنه. للموت صلاحيات مطلقة. يتبع القانون العرفي. له قانون إجراءات خاصة لا ينطبق على غيره أبدًا.

الموت. الغائب الحاضر. الحاضر الغائب الذي يتسرّب إلى كل مكان بلا جوازات عبور. الساكن الوحيد الذي يشغل أكثر من طابقين في العمارة الواحدة.

"الموت جَلَّ جلالُه. كما يقول شوليي".

أين كان الموتُ يختفي لكي يخرج بكل هذه القوة وكل هذا الحضور؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

في الفندق، يغلب على الجوّ الصمت الذي ترتبه الأغاني التي ترددها روزالي أو روزا كما يحدث أن تناديها الأختان حينما يسمح المزاج. أغانٍ يبدو أنها تتبع كل جديد في أوروبا بدلًا من الخضوع لذوق معين.

L'amour eSt un oiseau rebelle

Que nul ne peut apprivoiser

Et c'eSt bien en vain qu'on l'appelle

S'il lui convient de refuser

Rien n'y fait, menace ou prière

L'un parle bien, l'autre se tait

Et c'eSt l'autre que je préfère

Il n'a rien dit, mais il me plaît

L'amour eSt enfant de bohème

Il n'a jamais, jamais, connu de loi

Si tu ne m'aimes pas, je t'aime

Et si je t'aime, prends garde à toi

Prends garde à toi

Si tu ne m'aimes pas, si tu ne m'aimes pas, je t'aime

Prends garde à toi

Mais si je t'aime, si je t'aime, prends garde à toi

كانت أوروبا كلها تردد اللحن بكلماته البسيطة التي تثير الابتسام قبل أن تثير أي شيء آخر. أما ماركس فكان جالسًا في غرفة الاستقبال مغلقة النوافذ فيما الريح تصفع كل جهات المبنى الجميل.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- روزا مثل اسمها.. تعبق في كل مكان.

- صوتها جميل ولكنها لا تعمل بالجد الذي تستثمره في الغناء. تمنيت لو أن ترتيب الغرف كان يتم عن طريق الحنجرة.

كانت روزالي مازةً بالبهو حاملةً بعض الأغراض من الطابق العلوي إلى الطابق السُفلِي. ولا بد أنها قد سمعت السيدة أليس الصغرى تتحدث عنها بكلامها اللائم، فرشقتها بموسيقى جورج بيزيه محدقة في عينيها، ومُصرَّة على ما هي عليه وما هي فيه:

Prends garde à toi

Si tu ne m'aimes pas, si tu ne m'aimes pas

Prends garde à toi

ابتسم كارل ماركس مُتذكِّرًا جيني وهي تغني هذا المقطع، محاولةً محاكاة حركات الجميلة كارمن الغجرية الأندلسية مثلما قد وصفها أول مرة پروسپر ميريميه، قبل أن يحولها جورج بيزيه إلى أوبرا افتتنت بها أوروبا من شرقها إلى غربها ومن شمالها إلى جنوبها.

كانت جيني ترد على مُلاحظات ماركس حول بساطة الكلمات التي تقترب إلى التفاهة قائلة:

- كارمن تنتمي إلى البروليتاريا. لا تنتظر منها أن تتحدث مثل برونهيلدا.

- كارمن ليست من البروليتاريا. هي تمثيل بُزجوازي للبروليتاريا. البروليتاريا لا تستطيع تمثيل نفسها. لقد أفقدتها البزجوازية الحق في ذلك.

كانت جيني لا تلتفت إليه. فتجعل تُنشد بالألمانية لقطةً حريق برومهيلدا في الأوبرا التي استمعا إليها ألف مرة معًا. الأوبرا التي اشتريا كرَّاستها عشرات المرات لأجل سهرة موسيقية. كانت تقول له:

- الموسيقى تداوي أمراضك لأنها تبرهن على محدودية ماديَّتك التي تلتصق بها أكثر مما يجب.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

Siegmund!

Sieh auf mich!

Ich bin's,

der bald du folgSt.

..

Wer biSt du,sag',

die so schön und ernSt

mir erscheint?

..

Nur Todgeweihten

taugt mein Anblick;

wer mich erschaut

der scheidet vom Lebenslicht.

Auf der Walstatt allein

erschein' ich Edlen:

wer mich gewahrt,

zur Wal kor ich ihn mir!

..

Der dir nun folgt,

wohin führSt du den Helden?

..

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

Zu Walvater,

der dich gewählt,

führ' ich dich:

nach Walhall folgSt du mir.

..

In Walhalls Saal

Walvater find' ich allein?

..

Gefallner Helden

hehre Schar

umfängt dich hold

mit hoch-heiligem Gruß.

..

Fänd' ich in Walhall

Wälse den eignen Vater?

..

Den Vater findet

der Wälsung dort.

..

Grüßt mich in Walhall

froh eine Frau?

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

..

Wunschmädchen

walten dort hehr:

Wotans Tochter

reicht dir traulich den Trank!

كان ماركس يشعر بالألم داخله، ألم في الأحشاء يختلف عن ألم الرئتين، ألم يسكن الأوصال كلها، كلما تذكّر جيني وساعات موتها وهي تبكي وتعتذر له على غيابها عنه عامًا كاملًا بسبب داء الكَبِد والخوف من العدوى. عام منحوس مَرَّ بهما، وليس بينهما إلا جدار، فيما هما مُمدَّدان ينتظران الزيارات المتباعدة للطبيب، أو يعانيان الانتقال العسير جنوبًا إلى جزيرة وايت للتعرض للشمس. ولم تَكُن شمس ذلك العام في الموعد. كان أمر الطبيب صارمًا. على المريضين أن يبتعد أحدهما عن الآخر.

- آسفة حبيبي.. لو علمت أنها ستكون أشهُري الأخيرة لقبلت بأية عدوى منك، ولقبلت بنقل أي داء إلى جسدك الذي أعرفه كجسدي، والذي أعلم أنه لا يأتيني منه إلا الخير والفرح. أي داء سيكون أهوَن من المكوث في غرفة قريبة منك مع عدم رؤيتك بتوصية من الطبيب. آسفة حبيبي.

كانت تتكلم بالألمانية على غير عادتها. كانا قد تعوَّدا التبادل بالإنجليزية بعد مجيئهما إلى لندن. "هكذا سيكون الأولاد أكثر استعدادًا لعيش حياتهم اللندنية بعد أن منعنا بسمارك وكلابه من وطء الأراضي الجرمانية والأراضي الحليفة لها، منعًا باتًّا يعرضنا للشنق لو خالفناه".

كانت تعتذر إليه بالألمانية الغربية المتثاقلة، وكان هو يعرف أنها علامة خروج الكلمات من سويداء القلب.

كان ماركس يهرب من ذكرياته بمحاولة فعل أي شيء. فتح كتابًا لفرديريك نيتشه الكاتب الشاب الذي يتحدث عنه الفرنسيون كثيرًا ولكنه لم يشعر بأي شيء يجذبه إليه. كان يجد لديه شيئًا فهم جيدًا لا جدواه الكبيرة: التردّي الرومانسي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والتمارُض الثقافي لمُفكّري أواخر العصور. "شاعر وليس فيلسوفًا هذا الفتى. ثم إنه لا يعرف ما يريده ولا ما يقوله. أي عالَم سنبنيه بفلاسفة يتبنون الرأي في صفحة ويدافعون عن نتائج ما يناقضه بعد عدة صفحات؟"

رمى كتاب "إنساني، إنساني فوق العادة" لفريديريك نيتشه وفكّر في تناول كتاب "تعاليم الماسونيّة الجديدة" الذي كان قد قرأه مرتين أو ثلاثًا دون التورُّط فيه، ثم اصطحبه معه في حقائبه لأنه كان قد شرع في تدبيج مراجعة حول الموضوع، يذهب فيها في اتجاه غير بعيد عن اتجاه صديقه وعَدوّه في آنٍ ميخائيل باكونين. إلا أنه كان منشغل البال عن القراءة وفاقدًا للتركيز إلى حَدٍّ بعيد فعاد إلى مكتبه ليُدبّج رسائله اليومية.

كتب إلى صِهره وصديقه بول لافارغ:

".. أوّلًا يا صديقي الشاب المغوار، عليك أن تعرف ما هو المصطفى الأعلى؟ مصطفى هو اسم مثل جون. إذا غادرنا الجزائر من شارع إيسلي Rue d'Isly، ترى شارعًا طويلًا أمامنا، على جانب واحد وبانتظام غريب تواجهك عند سفح التل الفيلّات المحلية، وتحيط بها الحدائق، (إحدى هذه الفيلّات هي فندق فيكتوريا)، على الجانب الآخر، يصطفُّ الطريق مع المباني القابعة أسفل المنحدر. ويُطلق على كل هذا اسم المصطفى الأعلى. يبدأ الجزء السُفلِي من مصطفى (أي المصطفى الأدنى) عند نهاية المصطفى الأعلى ويمتد إلى البحر".

توقف ساعةً يراجع جُملَه متأكدًا من المعنى لأن ابنته الأثيرة جيني الصغرى كانت قد لاحظت بأنه حينما يكتب بالفرنسية يخطئ كثيرًا فيستعمل النحو الإنجليزي. فإذا كتب بالإنجليزية دخلت ألفاظ جرمانية كثيرة. وقالت له ن الأمر يبلغ أحيانًا حد غموض المعنى التام.

جعلته هذه الملاحظة يعيد قراءة كل رسائله بالفرنسية مرتين وأحيانًا ثلاثًا. عاد إلى رسالته قبل الأخيرة التي كان قد كتبها بالأمس. كانت مُوجّهة إلى بول لافارغ أيضًا.

تأمل قليلًا أسلوب كلامه إلى لافارغ، صهره المثقف الثائر القوي الذي فرح كثيرًا بزواجه من ابنته الحبيبة وكثيرة الشبه به لورا. رجل أحبه كثيرًا لعقله الراجح،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وارتاح كثيرًا على مصير ابنته معه.. سمّاها أول مرة جيني لورا ولكنهم ظلوا يسمونها لورا وأسقطوا اسم جيني عن لورا، اسم جيني الذي استفردت به حبيبته جيني الصغيرة التي وُلِدت عامًا ونصف عام قبل ميلاد لورا. جيني الصغيرة، ابنته التي كان يجتهد لكي لا يُظهر تفضيله لها. شيء ما غير مادي وغير عقلاني دفع به إلى تسميتها باسم أمها. في مرحلة شبابه كان يتمنى لو تكون مدينة تريف كلها مليئة بألف نسخة من جيني. جيني فيستفالن الجميلة الذكية الرائعة. جيني المجنونة وهي تلبس لباس الكونتيسة. جيني التي تتحول مثلما يتحول الممثلون على خشبات برلين وباريس وبروكسل ولندن: ساعة هي عالِمة الاجتماع التي تتحدث عن فولتير وغوته وشيلّر، وساعة تقارن بين فِخْته وتيرنس، والساعة الفوالِيّة تكون بصدد لعب دور جوستين أو إحدى نساء المركيز دو ساد الفاجرات اللواتي يتفنّنَّ في التعرّي، وفي تتبيل الاختلاء بالصاحب بتوابل الخيال اللذيذ، والوهم الأجمل الذي لا يخطر ببال أحد.

واصل ماركس رسالته إلى صهره واصفًا سحر المكان الذي لا ينجو منه أحد:

"المكان هنا جميل، خارج غرفتي خليج البحر الأبيض المتوسط، ميناء الجزائر العاصمة والفيلّات مرتّبة في المدرج متسلقة التلال بشكلٍ يوحي بلوحات الرُّوكُوكُو (أخاديد تحت التلال التي تستعلي تلالًا أخرى إلى غاية نهاية أعالي الجزائر حيث تتفشّى الغابة بسرعة وبلا تردد)، وغير بعيد عن المكان الذي أنا فيه، يمكن للناظر المجتهد أن يلتقط الجبال التي تستعليها ببذخ أكيد تلك القممُ الثلجيةُ أعلى بلاد القبائل.

حينما تأتي مثلي من لندن لن تجد شيئًا أجمل من المشهد الذي يستقبلك صباحًا في الساعة الثامنة، حينما يتم الضوء بزوغه: ليس هناك شيء أكثر سحرًا من تلك البانوراما المشكّلة من الهواء والغطاء النباتي والمزيج البشري والثقافي الأوروبي الأفريقي الرائع لهذه المدينة..".

كتب ماركس الجملة متأملًا السحر الذي التقطه منذ مشاهداته الأولى في الجزائر. سحر الطابع المغربي الذي كان قد قرأ عنه على صفحات الجريدة التي يقرؤها الجميع في الجزائر "لوبوتي كولون (المُعمّر الصغير) le petit colon"..
هل كان نصًا لموباسان؟ أم أنه كان اقتباسًا لبعض ما كتبه لامارتين عن زيارته إلى

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الشرق؟

"لن يكون هناك شيء أكثر سحرًا من مدينة الجزائر، وخاصّة الريف في ضواحي هذه المدينة في الصيف وما قبله على ما يُروى. أنا على يقين بأنه سيكون لديّ انطباع آخر، انطباع أجمل وأكثر بهجة، عن الليالي العربية - على افتراض أنني سوف أكون بصحة جيدة - لو كان حولي جميع الذين أحبهم (دون نسيان الأبناء الصغار)".

أكمل رسالته إلى لافارغ، وخرج من غرفته صوب البهو وبيده كراسة جيني التي أراد أن يقرأها بعيدًا عن الغرفة، للتقليل من أثر الصمت والقتامة الذي في الغرفة قليلة الضوء على نفسيته الهشّة. قصدَ المكان الذي وجد فيه أرائكه الأربع فارغة قرب المدفأة، حيث جلس وشرع يقرأ ما سطّرته له جيني في ساعاتها الأخيرة منذ أشهر قليلة:

"..

هل تذكر غراميّاتك؟

قصائد الحب التي كتبتها لي قبل زواجنا؟

يااااه كَمْ أن الأشياء تغير مذاقاتها ومعانيها بمرور الوقت.

وجدت نفسي أعود إليها مُؤخّرًا. أعلم أنك لا تعلم حتى إنني ظللت محتفظةً بها بحرصٍ أمٍّ تخشى على رضيعها من شرِّ مُحدقٍ ما..

هي معي دائمًا. كنت أضحك معك ومع البنات في موضوعها. لورا تحديدًا كان يُضحكها الأمر كثيرًا.

في الأيام الأخيرة، وبعدما احتلَّ المرض كل المساحات مني، وجدت أنها أغلى شيء أريد أن أحضنه. أجمل الذكريات التي تعيد إلى صدري العافية قليلًا فتمنحني قوة لكي أضحك وأسعل، ثم أسعل وأضحك.

كَمْ أحببتُك يا رجل. كَمْ أحببتُك يا قائد مركب المجانين.

هل تريدني أن أذكّرك ببعض ما في قصائدك أيها العاشق الملتحي؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

اقرأ إذن..

سُونيتّات لنهاية المطاف بين يدَيْ جيني

- أ -

خذي كل شيء، خذي كل هذه الأغاني مني

هذا الحب الراكع عند قدميك بتواضُع،

حيث تقترب الروح بحُريَّة،

في لحن القيثارة الكامل،

من الأشعَّة الساطعة.

آه!

كان صدى الأغنية قويًا كفاية

لإثارة كل هذا الشوق وهذه العذوبة،

ولجعل النبض ينتفضُ بحماس

ها أن قلبك الفَخُور يتأرجح بشكلٍ رائع،

ثم أشهد من بعيد

كيف يُنيرك النصر،

نعم سأقاتل، بأوارٍ أكبر وجرأة أكثر،

ثم لسوف ترتفعُ موسيقاي إلى أعلى.

نعم ولسوف ترتفعُ أغنيتي أكثر حرية،

وفي ظل العذاب اللذيذ سوف يبكي قيثاري.

- ب -

بالنسبة لي، لا مجدَ في الأرض

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مجدي أنا يسافر بعيدًا عبرَ الأرض والأمة

لإبقائهم في عبودية مثيرة

مع صدى بعيد المدى

يليق بعينيك المتألقتين،

وبقلبك المشتعل بهجة

ومع دمعتين عميقتين تسقطان،

وهذا الضياع الجميل في عينيك تُحدثه الأغنية.

يسعدني أن أتنفَّس روحي بعيدًا

في تنهُّدات القيثارة العميقة،

وهل سيموت داخلي ذلك الفتى الذي أحببتِه؟،

هل يمكن أن أبلغ سِدرَة التسامِي؟

ثم هل يُمكنني تحقيق الفوز الأكبر؟

وعتقك من الجحيمين: الفرح والألم.

- ج -

آه! لهذه الصفحات التي قد تطير بعيدًا،

أقتربُ منك مرتجفًا مرةً أخرى

ونبضي يكادُ يقف تمامًا

نبضي الذي تقهره المخاوف الحمقاء وآلام الفراق.

خُيالاتي المتلاعبة بي

وأنا أذرع الطُّرُق عبثًا،

عاجزًا عن الخروج من مَدارِاتي،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

خائبًا وفارغًا من كل شيء عدا الأمل.

الأمل وحده يجعلني أعود

عندما أعود من كل تلك الأقاصي

إلى ذلك البيت العزيز، المليء بالبهجة،

حيثُ أحتضنُكِ بسخاء،

وأضمُّكِ بفخر، فأزداد جمالًا.

ثم سأستلُّ من البرق نارًا

يتدفأ منها البؤس والنسيان.

- د -

اغفري لي كل ما حدث،

اغفريه

فما هو إلا شوقُ الرُّوح العميق للاعتراف،

يجب أن تحترق شفاه المُغنِّي تمامًا

لتطلق العنان لنيران محنته.

هل يمكنني السيرُ ضد نفسي مرة أخرى؟

فأفقد نفسي، وأقعي غبيًا أتلظَّى،

سوف أحفظ ما فيَّ من سُمُوّ

لكي أطمحَ أكثر لكتابة أغنيتي

أغنية سوف تتعالَى على كل شيء

لتبلغ قمَم حُبِّكِ الشاهقة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كان فيرمي يجتهد كثيرًا كي يبعد السّحنة المتجهّمة عن ماركس. روى له حكاياته في حالة حصار في بعض أقبية شمال باريس، أيام كومونة باريس، وكيف أنه ذات يوم رمى قطعة جُبن متسخة في الصباح لكي يبحث عنها في مساء اليوم المُوالِي ويأكلها، وكيف أنه أقنع نفسه بأنه كان مخطئًا في التقدير بالأمس حينما ظنّها تامة التلف ورماها..

اكتفى ماركس بالابتسام والتنهُّد مُعقبًا بأن تعبهم لم يذهب هباءً وبأن حقوق العمال قد تحسنت كثيرًا، وأنه قد قرأ مقالًا حول مبادرة قام بها تجمُّع لمُسيّري مناجم الفحم في الشمال إذ بنوا مساكن للعمال على درجة عالية من الأبهة. مساكن فيها حمّام خاص بالعمّال، بل إنهم أنشئوا مسبحًا وشغلوا عاملًا يُسمى Le baigneur، المُحمّم، يعلم الصغار الذين لم يسبق لهم أن رأوا البحر كيفية السباحة. وكل هذا لفائدة العمال وأهاليهم وعلى عاتق المُلاك.

- هل كان يمكن أن يحدث هذا لولا اتحاد عمال العالم ولولا تشبُّث كومونة باريس بمدينتهم في وجه الغزو.

ابتسم فيرمي قائلًا:

- كان هنالك عربيّان معي في القبو. تصور. يجوعان ولا يشربان الخمر. كان الجماعة يأتوننا بالنبيذ الأحمر الرخيص لأنه لم يَكُن بحوزتهم سواه، وكنّا في كثيرٍ من الأحيان نكتفي بأكل الخبز الأسود الجاف وبشرب قليل من النبيذ. أما العربيان فكانا يمتنعان عن الأكل.

- كانا يحاربان لأجل وطنهما - قال ماركس بجدّية مرعبة.

- صحيح إنه أمر مُحيّر. هؤلاء العرب الذين لا نحن تركناهم ينفصلون عنّا، ولا نحن نقبل أن يختلطوا بنا.

رمقه ماركس بنظرة تحُفُّها لحيته الكثّة فتؤجّج تراجيدياها:

- ولا أنتم أو نحن منحناهم الحق في اختيار الحل الذي يناسبهم. نقول نحن عمران فيقولون خراب بيوت. ونسميه استصلاح الأرض، فيتذكّرون قانون نزع المِلكيّة ويسمونه سلبًا وسرقةً وعدوانًا. نرى في الأرض إمكانات استثمار زراعي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يحافظ على استقرار الأسواق، ويرون هم ميراثًا وتاريخًا، ويقدّسون مزاراتٍ يبنونها تيمُنًا بجدود وصالحين ماتوا منذ مئات السنين، ويشعرون إلى اليوم بالراحة وهم يناجونهم ويحاورونهم ويمارسون طقوسًا تحتفي بهم.

- فعلًا. إنهم شديدو الإيمان بالخرافات.

- إذا ذكرت لهم أشعار لوكراشيوس ذكروا قصائد لجدودهم الصالحين، ثم تأتي إلى مسيو فولتير فيقول لك إن التاريخ أقصر مما نعتقده، ويأتي الموسوعيون من أمثال دالمبير فيقولون إن كثيرًا من الشخصيّات التاريخية خرافات كتبها مجهولون في صفحات مجهولة من التاريخ، بدءًا بالنص الأول الأهم في تاريخنا الذي هو هوميروس. ألا يساوي هذا الأمر بيننا وبينهم في الإيمان بالخرافات؟ لكلٍّ خرافاتُه التي يرتاح إليها دون أن يجبر الآخرين على الإذعان لها.

صمت فيرمي مُبتسمًا كأنه يوافق على كلام الفيلسوف، فيما تذكّر ماركس الجدل الكبير الذي قابله حينما دخل باريس أول مرة عام 1843، حول استيلاء الجنرال بيجو على أجزاء كبيرة من الأراضي في الجزائر التي حكموا عليها أنها أراضٍ بلا مالك، في حين كانت هي أراضٍ حُبُوس موقوفة للاستعمال الديني من قِبَل أصحابها.. يذكر جيدًا ما كانت الصحافة تنقله حول الجدل الذي كان يملأ مبنى البرلمان في باريس. على العكس من ماركس، كانت جيني تكره لامارتين رغم اعتراضه على العمل الذي قام به بيجو.. موقف يجعله الأفضل وسط كبار المثقفين أيامها ممّن لهم في الشأن السياسي: بيزو وطوكفيل ولامارتين، وحتى فيكتور هيغو الذي كان شهيرًا رغم أنه لم يَكُن عضوًا في الحكومة ولا البرلمان كحال الثلاثة الآخرين.. كان رأي جيني في لامارتين قاطعًا: "معارضة الكلام الفارغ ليست معارضة".. المُعارِض يترك العمل في الحكومة التي يكره أفكارها، أما أن يترقى داخلها فهذه تزكية لها وليست معارضة هدفها تغيير الأوضاع.. صديقك الشاعر الرومانسي رجل زائف ولا يمكنه أن يكون شاعرًا. أعتقد أنه يركب الشعر إلى الوجاهة السياسية، ويركب السياسة لتحقيق مجد شخصي، وليس خدمةً لمثُل أعلى ما من تلك الأهداف السامية التي يُتعبنا بالحديث والكتابة عنها.. كل عمله السياسي بناء لسرح كبير اسمه ألفونص دي لامارتين.. "هذا هو أسوأ ما في النظام الفرنسي نصف البرلماني هذا الذي اجترحوه في الأعوام القليلة الفائتة.. فلا أنت

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تحكم فعلًا ولا أنت مُعفًى من الحكم".

كان بذهن ماركس أيضًا قانون 1873 الخاص بسلب ملكية الأراضي والذي جاء شهوزًا قليلة بعد مشاركة الجزائريين والعرب في أحداث الكومونة، بعدما عملوا بكل جد في فرَق بناء باريس التي عملت ليلًا ونهارًا لأجل تحقيق الأحلام المجنونة لنابليون الثالث، ولهوسمان مُصمِّمه الحالم بعاصمة تصبح مثلما كانت قرطبة ذات زمن، ومثلما صارت فلورنسا في زمنٍ آخر، ومثلما هي منذ زمن بعيد لندن، المدينة التي استولت على حَوَاسّ بونابارت الثالث في أيام شبابه أيام منفاه الأول، فأراد لباريس أن تشبهها، وخاصة مثلما هي فيينَّا: أجمل مدينة في العالم في رأي السياسي هوسمان، الذي هندس للشكل الجديد لباريس رفقة مهندسين ابتلع هو صيتهم بصيته وشخصيته المهيمنة، ولم يعُد لهم مكان إلا في بعض الكتب.

القرن التاسع عشر. قرن العالم الجديد.

ولم يَكُن فيرمي ليفكر في شيء آخر عدا هذه الأمور التي تلوح دائمًا من خلال صمت من يدافع مجبرًا عن عمل الإدارة الاستعمارية في المستعمرات.

قطع فيرمي الصمت محاولًا مسايرة ماركس فيما ذهب إليه:

- يحيرك في العرب تشبثهم بتقاليدهم. الموروث عندهم أهم من كل شيء. ترى السيد العربي سليل الأشراف وبيوت العلم والمرابطين كما يقولون، فتجده يتفنَّن في إظهار أبَّهة الملبَس رغم الأسمال التي قد تكون بالية أو مُقطَّعة أو غير متماشية مع برودة الجو شتاءً، أو حرّه صيفًا.. فوضى كبيرة تخضع لبروتوكولات معقدة.

- أعتقد أننا لم نترك لهم غير ذلك ملاذًا للمروءة ولقوانين الشرف الصارمة التي يتميزون بها.

- فعلًا.. أنا مجبر على الاعتراف بأننا نتصرف بالعجرفة الرومانية نفسها التي نتحدث دائمًا عن سلبياتها. منذ عامين أو ثلاثة كنت في ليون. حضرت جمعية الماسونيين السنوية. ألقى الموسيو جول فيري خطابًا ناريًا حول حقوق الإنسان تضمن الحق في التعليم والحق في التكوين والمُواطَنة والحق في الاستفادة من مُستجدَّات العلم. تتبعت جيدًا خطابه. في العادة يروقني كثيرًا أسلوبه في كتاباته ويسحرني أسلوبه كخطيب.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لم يَكُن ماركس يُبدي أي تعبير. كان القاضي فيرمي يجتهد كي يلعب دور المتحدث والشاهد على ما في الحديث من شجون، ثم دور الضمير الذي عليه أن يتحدث بكلام المتعلمين، منتهيًا إلى لعب الدور الإضافي والأساسي للممثل القانوني للدولة الفرنسية القائم على مصالح المستوطنة. لم تَكُن مهمته يسيرة.

تكلَّم ماركس كأنه يحدث نفسه:

- فيري شخص غامض جدًا. موجود في كل محفل وفي كل مكان. وقد كثُر الحديث مُؤخَّرًا عن تورطه في المضاربات البنكية، وهذا سينسي الناس أفضاله كلها. الناس في أوروبا قد تنسى كل خطاياك إلا السرقة.

واصل فيرمي محركًا رأسه بالإيجاب كأنما ليوافق على ما قاله ماركس:

- نعم.. هذا ما عاينته.. أنهى خطابه بفقرة طويلة حول فضل العمل على تطوير حركة الاستيطان. كثير ممن كان هنالك كان قد شارك في أحداث الكومونة وحتى في ثورة 1848.. وكثيرون عبَّروا عن الألم الذي يخلِّفه العنف الذي يتم به عمل المستعْمرات، والسيطرة على الأهالي الذين يرفضون وَطأنا لأراضٍ هي لجدودهم منذ فجر الزمان.

- هل واجهوا مسيو فيري بذلك؟

لوهلة بدا ماركس مهتمًا لما يسرده فيرمي الذي صار أكثر ثقةً في مفعول حديثه على محدثه العظيم الحزين المريض. ازداد أوارُ صوته، وواصل.

- أحد الأعضاء البارزين في المحفل عقَّب عليه علنيًا فيما يشبه سابقة في المحافل الماسونية التي غالبًا ما يسودها نظام شبه عسكري إن لم يَكُن يفوق النظام العسكري. قال له: كلامك جميل يا سيد فيري. وأفضالك بارزة ولكنني أسألك أمام الإخوان: هل تقبل أن نفعل في هذه البلدان ما فعله المجرم بسمارك في الألزاس واللُّورين؟.. هل تقبل جوَّ الفتنة الذي ساد أيام أحداث الكومونة في باريس؟ هل الشِّقاق مقبول في معجمك السياسي؟ هل علينا أن نقول للتاريخ وللأجيال التي تأتي من بعدنا ونحن ورثة أهل الأنوار.. نحن الذين نزهو بتسمية الإيلومينايتي illuminati (المُتنوِّرون).. إن دورنا في التاريخ لم يتجاوز التلاعب

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بالسياسة لخدمة المصالح المالية، وإننا نحن أول من غلّب المصلحة الاقتصادية على المُثل الأخلاقيّة العليا التي مات لأجلها الناس، والتي حوّلتنا إلى الجهة المركزية في هذا العالم؟

انفتحت أسارير ماركس بغتةً وهو يسمع هذا الكلام:

- مُتشوّق فعلًا لمعرفة ماذا قال فيرّي الذئب ردًا على هذا الكلام.

ابتسم فيرمي وقال:

- لن تتوقع ما حدث. لقد أطلق فيري موجة تصفيق عارمة على كلام صاحبه. هيز فون براون إن لم تَخنّي الذاكرة.. مسير بنك في جينيفا. يهودي اشتراكي يكره عمله أو يتظاهر بذلك.. لا أعلم.

ضحك ماركس.

بعد لحظات داهمته نزلة سُعال حاد.

أراد أن يُبدي ملاحظةً ولكن نزلة سعال أخرى قاطعته للمرة الثانية.

- اليهودي محكوم بطرق عمله القديمة. نصوصه أهم من الحضارة. أهم من التاريخ ومن الحياة نفسها. النصوص هي الحقيقة الوحيدة في دماغ أمشل العجوز.

- مَنْ؟

- أتحدث عن جدّي. جدي الرّبي الذي تمناني فقيهًا في شؤون التّلمود.

- آآآه.. نعم.. ولكن.. مسيو ماركس، ما العلاقة؟

تنهّد ماركس تنهيدةً متعبة تومئ إلى الرغبة في اختصار الجلسة:

- صديقك لا يصدق كلمة مما قاله.

قاطعه فيرمي:

- دعني أراهنك على أنه كان مُصدّقًا لكل كلمة قالها.

- هل تقصد أنه صادق كصدق رجال السياسة؟ أذكرك بأن الغوفيرنور هنا غالبًا ما..

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قاطعه صاحبه مُستغربًا:

- تقصد تيرمان؟

- نعم.. هو.. لوي تيرمان حُقوقيٌ وجَفهوريٌ متأثر بغامبيطا حسبما بلغني.. هذا لا يمنعه من قول بعض الكلام الذي ينسف كل نوع من أنواع البرامج السياسية النبيلة التي يعلن عن نفسه أنه منطلق منها.

- تقصد جملته الشهيرة التي لا يفوّت فرصة كي يعيدها: "فرنسا ليس لديها واجبات للعدالة فحسب بل واجبات للحماية وللمعاملة السخيّة".

- نعم.. جملة صاحَبت كل جنودنا، وخاصةً أولئك الذين كانوا يتحمسون للحرب بسبب كونها من التمارين المهمة في الحياة.

عاد السُعال بشكلٍ أكثر حِدَّة.

تكلم فيرمي بلهجة الطبيب:

- لا تنسَ أن تتوقف عن الكلام وتأخذ راحتك وأدويتك.

ابتسم ماركس ابتسامة خفيفة وأومأ بصعوبة المهمة، فأردف فيرمي كأنه تذكّر أمرًا:

- بالمناسبة، هيئة تحرير جريدتنا الرئيسية لوپوتي كولون تريد ألّا تفوت فرصة وجودك هنا. يعرضون عليك المبلغ الذي يناسبك لأجل إجراء حوار مُطوّل معك. حوار بصورة. مع عقد بحُريّة التعبير عن آرائك ونشرها حرفيًا. ماذا تريدني أن أقول لهم؟

ضحك ماركس ضحكة خافتة.

- ألا تروقك الفكرة سيدي؟ في المطلق أنا قلت لهم إنك هنا في رحلة استشفاء والأمر قد يُتعبك.

- لا ليس هذا ما يُضحكني. كل ما في الأمر هو أنني قضيت عُمرًا طويلًا في الجري وراء رؤساء التحرير من برلين إلى باريس إلى بروكسل ومانشستر ولندن، في محاولاتٍ يائسة للحصول على أجرة مقالات أكون قد كتبتها ونشرتها.. في

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كثيرٍ من الأحيان كانت مكافأة المقال هي ما نأكل به القُوت في ذلك المساء. وها هم اليوم في الجزائر يعرضون عليّ المبلغ الذي أريده لقاء حوار أقول فيه ما أشاء. كَم هي غريبة ومليئة بالتقلبات هذه الدنيا!

- فعلًا.. الحياة غريبة. دعني أتركك لترتاح يا سيدي. ماذا أقول لهم؟

- لا مانع لديّ. ولكنه سيكون لقاء بلا مقابل. هدية للجزائر التي تبدو مُرحِّبة بي إلى درجةٍ مريبة.

- مرحبًا بك مسيو ماركس. أنت تنوِّر الجزائر فعلًا.

خرج فيرمي كأنه سعيد بموافقة ضيفه على الحوار، رغم علمه أن ماركس سليط اللسان وقد يقول أشياء مزعجة للحاكم أو للسياسة الاستعمارية بشكل عام.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مرّت وجبة العشاء الجماعي بدعوة من السيدتين أليس بلا كثيرٍ من الحديث. بعد الشاي واليانسون اعتذر أغلب الحضور عدا ماركس وأليس الصغرى وروزالي والسيد شوز. أراد ماركس التأكُّد من أمرٍ كان يشغله أحيانًا كلما رأى السيد شوز فسأل:

- هل يسمح لي مسيو شوز بسؤال خاص بعض الشيء ولا يخلو من تطفُّل؟

- أنت كارل ماركس، وإجابة أسئلتك فخر للجميع.

شكره ماركس ورشفَ رَشفةً من كوب النبيذ الأبيض الذي ملأت نصفه روزالي:

- هل ذهبت إلى الجُزُر البعيدة في حياتك؟

نظر شوز - متوجسًا كعادته - إلى ماركس الذي كان وجهه لا يشي بأكثر من الرغبة في معرفة موضوع السؤال. تنهَّد عميقًا. حشا غليونه مستعدًا لإشعاله فنطقت السيدة أليس:

- أتمنى ألا تغفل عن واقع صحة السيد ماركس الذي ربما لا يطيق دخان تبغك سيد شوز.

نطق شوز أخيرًا:

- لم أكُنْ سأشعله. حشو الغليون يُريحني عمومًا ويُعطيني فرصة صغيرة للتمتع بهذا الفعل الذي يمهد لموعد التدخين، الذي غالبًا ما أؤجله كثيرًا في محاولةٍ يائسةٍ للتخلص من التدخين.

- شُكرًا لك.

رمت السيدة أليس عبارة الشكر بوجهها غير النسائي، الذي لا يضحّي بأية مساحة للذكورة الشديدة المحيطة بها. التفت شوز إلى ماركس وقال بلا أية نبرة خاصة:

- طوال حياتي لم أفعل شيئًا عدا العمل في البحرية العسكرية. ظللت أذهب إلى جُزُر بعيدة مثل جزر الغوِيَان وكايين وجزيرة الشيطان، أو إلى كاليدونيا الجديدة والمارتينيك وأبعد منها.. كنا ننقل الأسرى والمؤونة. لم أقُم طوال حياتي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

برحلة خالية من الموتى والمتمردين. حياتي هي سلسلة طويلة من الخدمة في ميدان نسميه البحرية والمقصود هو الحربية، ونسميه زيارة الجُزر والاستكشاف مع فرَق العلماء، والواقع أنها كانت تنظيمًا لمجازر رهيبة، ثم كذب أبيض من خلال إطلاق أسماء علمائنا وأمرائنا الجبناء على نباتات ندَّعي أننا اكتشفناها فيما أهل البلد يعرفونها ويستعملون معظمها منذ الأزل. وكل من يتحرك ضد ما نفعله نعاقبه بأقسى أشكال التقتيل، حتى لا نخول لغيره من الغاضبين على الوضع نفسه فيتحرك هو أيضًا. إنها حضارة القتل والخوف. لا مجدَ مع الرعب. الرعب يُنتج الرعب والكُره الكبير.

صمتَ قليلًا يتفرَّس في وجه ماركس الذي كان يحرك رأسه، في حركة تتوسط المسافة بين الموافقة وطلب المزيد. وبعد زمن من الاستماع إلى الصوت الرائق لفرقعات الأعواد المحترقة التي كانت روزالي ترميها في النار نطق ثانية:

- شيء واحد لم يخبروني به.

رمت السيدة أليس:

- ما هو؟

- لا أحد قال لي إن هؤلاء المساكين الذين أعدمناهم في إطار خدمة المصلحة العليا للبلاد سيستيقظون بعد كل هذه السنوات ليأتوا فيزورونني كل ليلة. لا أحد قال لي إنني سأتذكَّر وجوههم جميعًا أنا الذي كنت كثيرًا ما أقتلهم دون التفرُّس في وجوههم لهذا الغرض بالذات. كنت أعتقد أنه يكفي ألَّا تنظر إلى وجوههم لكيلا تتعرَّف عليهم ولا يتعرفون إليك. كَم كنتُ مخطئًا!

- فعلًا. الأمر رهيب، رمى ماركس ليمنح صاحبه فرصة استرجاع أنفاسه التي كانت قد بدأت تقصر وتتضاءل.

- لا.. ليس رهيبًا كما تعتقده. عليك أن تعيش هذا العذاب لكي تفهم حجم المأساة. يأتونني بالعشرات، كلهم بوجوه حزينة وبأعناقهم أو بطونهم المفتوحة. يقفون هنا عند باب الفندق أو باب الغرفة، أو في حديقة بيتي في الجنوب. لا يقولون شيئًا. ينظرون إليّ أو يتفرَّسون في البيت دون أية كلمة. الغريب أنني أذكرهم بوضوح وأرى أمامي حادثة الذبح أو القتل أو بَقر البطن.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تكسّر صوته حينما أراد أن يتخلّى عن رباطة جأشه:

- دائمًا أحاول أن أنطق بكلمات اعتذار ولكنني أعجز عن ذلك. أعجز دومًا يا سيد ماركس.

هنا انهار سيد شوز عظيم الجثة باكيًا. اقتربت منه روزالي وأحاطته بيدها اليُمنَى جالسةً عند مُتّكأ مقعده:

- كَم أتمنى لو أستطيع الاستغفار. لحظتها فقط أنتبه إلى أن رأسي مفصولٌ عن عنقي، لقد ذبحت نفسي أيضًا من الوريد إلى الوريد فلم أعد قادرًا على الكلام. يا إلهي ماذا فعلت بنفسي وبهم. أنا أود أن أعتذر أمامهم عن الحماقات التي مارستُها. كنت أعتقد أنني أسدِي خدمة كبيرة لوطني، الذي كنت أعتقد أنه يفعل كل تلك الفظاعات في محاولة لنقل الحضارة إلى كل مكان.

كان صوته قد أتم الانكسار فيما فرنسا تحاول نقل الحضارة بعنوَةٍ إلى المتخلفين. أوقفته روزالي قائلةً بصوتٍ فيه كَمٌّ هائلٌ من التسلط: "كفَى.. كفى الآن. توقف. لا تفعل بنفسك هذا!"

كان يبكي ويشهق بين اليدين الصغيرتين لروزالي وهي تقتاده إلى السلالم ليصعد إلى الطابق العلوي حيث غرفته.

"سامحوني أيها الغرباء. سامحيني يا نفسي. سامحيني روزا. سامحوني. لن أفعل بنا وبهم كل هذا ثانيةً والله. لن أفعل ذلك ثانية. لا بد من وجود طريقة لطلب السماح. عفوًا عفوًا. أنا آسف ونادم جدًا.. ".

واختفى في الظلال الليلية للمكان.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عاد ماركس كما كان يفعل دائمًا إلى ألبوم صوره الذي تركته له جيني لكي لا ينسى. "النسيان داء القرن. علينا أن نجتهد لكي لا ننسى. ربما كان وعي القرن بأن النسيانَ داءَنا الأكبرَ هو السببُ في اختراع الشيء الجميل جدًا الذي هو الفوتوغرافيا".

لم تَكُن جيني على خطأ.

جيني على حق حتى في صمتها وفي قمة أخطائها. على حق من حيث المبدأ.

جيني على حق في مطلق الأمر.

قابلته صورة الجامعة. هي صورة أخذت سنوات طويلة بعد خروجهما من الجامعة. كانت لديه صورة باليد أنجزها هاينريش فانن. كان زميلًا ظريفًا في الجامعة يجيد التمثيل والتصوير بقلم الرصاص، كانت جيني تسميه مازلطوف مُذكِّرةً إيَّاه بيهودية عائلته القديمة التي عوضتها كما كان يحدث دائمًا بروتستانتية سطحية، محدثة لم تَفخ شيئًا من سابق دين العائلة.

"تعلم حبيبي؟ المدنية الحديثة تتلاعب بالوهم. عائلة فانن يهودية الأصول. دخلت البروتستانتية كما يفعل اليهود جميعًا بحثًا عن مناصب عالية في الإمبراطورية. ولكنها عائلات تقيم كل الشعائر اليهودية التي تصفُها بالعادات والتقاليد. تصفُها بأنها جزء من التاريخ اليهودي المسيحي لأوروبا. قرأتُ هذا لدى أحد مُؤرِّخي عصر شارل كِنت. هل تصدق أن عصر الاضطهاد الديني يُنتج مصطلحًا كهذا؟ culture judéochrétienne ثقافة مشتركة في أوروبا. هنا أتساءل يا عالم اجتماع النقود والمبادلات البنكية: كيف يمكننا أن نصف المعاملات التي تحيل على كل هذا؟ هل يمكن لأوغست كونت أن يفهم هذا الملمَح؟ سيصفُ التشكيلات العائلية في ظاهرها ولكنه سيكون له جانب خفيّ لن يدرسه لأنه لن يعلم بأمره أصلًا. مازلطوف سيُوقع بكل أعمال كونت وتلامذته"..

كانت أجمل امرأة تجيد الحديث عرفها في حياته. وكانت أيضًا أجود امرأة تصريفًا لمُجرَيات الحديث رآها وسط الجميلات في حياته.

- لستُ جميلة. أنا امرأة من بيت مثقف ولهذا الأمر سحره الخاص.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- بل أنت مثقفة وجميلة وربما أبعد أثرًا في الجمال منك في الثقافة. اقبلي واصمتي. أنا رجل وأنت في مجتمعات رجولية. عليك أن توافقي على كلامي إلى أن يتحقق المجتمع الشيوعي حيث يتساوى الجميع.

- قلتُ لستُ امرأةً جميلة. أنا عادية وثقافتي فوق المتوسط السائد في هذه القارة البائسة. وعليك أن تقبل كلامي وتصمت. لا تنسَ أنك يهودي الأصول والكلمة الأخيرة لدى اليهود تعود إلى المرأة دائمًا. شالوم.

يذكر جيدًا متعة الدخول إلى الجامعة. جامعة بون العظيمة التي لم يَكُن لليهودي الذي كانَهُ جدُّه أي أمل كي يدخلها ويخرج منها بسلام. كان إصرار اليهود المتنصِّرين بستار الديانة البروتستانتية على دراسة الحقوق، والدخول في دواليب القانون والإجرام والدفاع عن ذويهم، يجعل كارل نافرًا جدًا من هذا القدَر المحتوم، هو المولع بهيغل ونبوءاته الإيجابية بعالم جديد يعقب زلازل الثورة الفرنسية، هو الذي كان يقرأ عند شوبنهاور بأنه على الرجل عالي الثقافة "سيِّد نفسه" كما يصفه أن يُسهم في كتابة قدَره، لا أن يتفرج على سيل الأحداث فحسب محاولًا النجاة من التيارات المناوئة.

جزء واحد يتذكَّره مع الصورة التي تقابله كان سعيدًا جدًا بتركه يأخذه بعيدًا. عزف النوطات الافتتاحية من سوناتَة بتهوفن رقم 32 المسمَّاة الصمت سيلنسيو. يوم جاءته جيني بالصورة عزفت مرة أخرى تلك المقطوعة التي كان مغرمًا بها، بقدر ما كانت هي مغرمة ببتهوفن.

كان فيها حزن لا يدخله إلا أناس مميزون ممن كان يُبشِّر بهم شوبنهاور على أساس كونهم الأقل تعاسة.

لم يَكُن معجبًا بشوبنهاور إلا في إطار شبهه بالإغريق الذين أولع بهم دون أن يعرف كيف. ربما كانوا أقدم من أن يُحاسَبوا على الشرور التي سيكرهها طيلة وجوده: ديمقريط - أبيقور- لوكراشيوس.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كانت نوطات بتهوفن في سوناتاته تقول أشياء طال بحثه عنها في جامعة بونّ، ثم جامعة برلين، أين قرر ترك الحقوق بعد عام واحد، لاحظ فيه أن هنالك التفافًا عبرانيًا مقيتا حول الحقوق والقانون. لم يَكُن الأمر يريحه تمامًا.

يبتسم دائمًا حينما يذكرون أمامه موضوع الدين. المسيح. القدّيس بطرس. القديس فرانسوا داسيز. طوما الإكويني. مريم العذراء. شالوم. ييديش. موشي. الثَّلْمُود. شاباط. لحم الكاشير. الخنازير. الكيبا. الزوهار. الأنوار. دليل ابن ميمون. القبّالة. العلم الخفي. الربيون. الصالحون. العادات. العادات. العادات.

العادات بسلطتها التي لا سندَ لها سوى القِدَم في التاريخ. العادات كانت عدوّه الأكثر ضراوة.

ولربما يكون العداء المبكر الذي لاحظه لدى إنغلز للعادات والتقاليد هو أكبر شيء جذبه صوب ذلك الرجل العظيم الذي تحدّى أعراف طبقته التي كانت تضمن له الراحة التامة، وراح يتعاطف مع حال العمال في بلاد الشمال التي لم تَكُن بلاده أصلًا."رجل يفوق طاقات عصره" كانت الصفة التي ألقاها جوزيف برودون على إنغلز يوم لاقاه للمرة الأولى ببلجيكا. وهي الصفة نفسها التي وصف بها إنغلز ماركس مِرارًا.

العادات والتقاليد عدو الحضارة والتاريخ.

يُذكّره كل ذلك بما كان يقوله أبوه ضاحكًا حول موضوع تحرُّر أمّه من أعباء الديانة اليهودية عند وفاة جده، فقد كان أبوها راهبًا يهوديًا. "ما هذه الديانات التي نتخذها لكي نحصل على وظيفة؟ أو نحصل على رضا جماعة معينة؟"

- الدين يقدم نفسه كتجربة روحية، أي داخلية. والواقع أنه لا يملك أي تمثُّل داخلي. فكل ما يدل على الدين مظاهر جماعية، وكل ما يرتبط بالإنسان داخليًا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يعود إلى أساسيات لا صلة لها بالدين.

كذلك كان يقول لجيني في أيام لقاءاتهما الأولى.. لاحقًا ستعترف له بأنها لم تَكُن تستمع إليه إلا بربع أُذنها، باقي الحَواس كان مُركزًا على شفتيه الإفريقيتين المحتقنتين بالدم فيما هو يتكلم بحماس رجل دين غير يائس من إقناع الصابئين بالعودة إلى دينه.

كان دينها هو الحب. الحب وحده لا شريك له. عليه تحيا وعليه تموت وعليه تلقَى العذراء، أو يهوه، أو تلقَى مَن تلقى.

"العذراء خرافة بُرجوازية"، كان كارل يقول لها بنفس الشفتين المحتقنتين اللذيذتين.

في الحركة الثانية من سُوناتَة بتهوفن كان يوجد صخَب أعلى بقليل ولكنه صخب لا يعدو أن يكون هَبَة ريح عابرة تعود به إلى أعماق لم يَكُن واثقًا بأن انتقاله إلى برلين سيساعده على استِكْناهِها:

إيقاع يتحرك لكي ينكسر نهائيًا.

كان يعزفها ذهنيًا بالإيقاع العريض نفسه، largo الذي كانت تحب هي عزف هذه المقطوعة عليه، مع التعليق على انطباعاته حولها. كان يسمع نفسه وهو يقول:

- لكننا علينا أن نحوِّل ما فينا من شجن عميق إلى طاقةٍ تُحرِّكنا.

فيما كانت جيني تجيبه بصوتها الذي يُذكِّره بالهَازِ الإغريقية في خفَّتها وسحرها القديم:

- لماذا لا تعزف روسيني كما يفعل الجميع. روسيني حي وحيوي ويؤمن بما تقوله؟

- هو تافه في النهاية. الموسيقي الذي يتبع إملاءات جملته الموسيقية وإملاءات ميول الجمهور ويمحو التعبير لفائدة الإعجاب هو تروبادور وليس شاعرًا. صبَّاغ جدران وليس رسامًا.

- أنت قاسٍ جدًا يا جلالة الفيلسوف. روسيني ليس كما تقول وأنا مولعة به جدًا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- لا يحقُّ ليهوديةٍ بالتبنّي الثقافي أن تُعجب بروسيني. احترمي نفسك أو ستفقدين الكلمة الأخيرة لفائدة الذكوري المشتغل على إحلال مجتمع مختلف.

هجم عليه حزن عميق جدًا وهو يتذكّر صوت جيني الذي لن يسمعه مرة أخرى.

لجأ إلى الجريديتين اللتين كانتا متوافرتين في الفندق عدا لوپوتي كولون التي كان قد اطّلع على ما فيها صباحًا. المارسيلي الصغير ولوفيغارو.

تصفّح لوفيغارو فوجد فيه مقالًا استرعى انتباهه: "تقرير طبيب نفسي حول وضعيّة الأهالي في الجزائر" من تحرير محمد شوليي.

كان مقالًا كثير الجدَل فيه ميل صوبَ العمال والبسطاء والدفاع عن حقوق الأهالي، فيه إحصائيات حول المرضى الذين دُفنوا قبل أن يتم فحصهم. فيه أرقام حول مداخيل العمال من الأهالي. قانون الشغل الحالي والتفاوت الكبير بين أجرة الفرنسي والمسلم اللذين يعملان في المنصب نفسه. نقص ضمانات العمال. سوء ظروف العمل في الحقول. كان مقالًا مُحرزًا بطريقة غريبة.

قرأه ماركس مرتين حتى شعر بالتعب.

اتّكأ على فراشه مُغتمًا. شيء ما كان ينذره بشرٍّ قريب.

محمد شوليي. غريبٌ أمرك يا سيد محمد. ولكنه مقال لن يمرَّ بسلام.

ولكي يغير إيقاع تلك الأمسية المزعجة قرر أن يعود إلى كراسة جيني.

كان يعلم أنه سيتذكّرها أكثر، وسيشعر بوخزة جيني كما يسميها منذ أشهر قليلة. ولكنه لم يتردد. كان قد بدأ يدخله القلق من أنه إلى غاية الآن لم يكمل تلك الكراسات. لم يحدث له أن خاف من شيء في حياته مثلما صار يشعر بالخوف من الحزن.

كيف يشعر بالخوف من الحزن مَن عاش متحديًا الموت نفسه.

أخذ الكراسة وفتحها عند الصفحة التي توقف عندها، وكانت مُعلَّمة بشريط قراءة أزرق.

الأزرق لون جيني المفضل طبعًا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

".. مساء الخير حبيبي. أتمنى أن تقرأ هذه الصفحات في المساء. أريد للصدفة أن تكون إلى جانبي بعدما صار الحظ ضدي.

مساء الخير، وإن كنت في الصباح فصباح الخير. ربما ستقرأ هذه الصفحات وأنا في القبر.

أترى؟

في برنامجنا الطَّمُوح أقمنا حسابًا لكل شيء عدا الموت.

الموت أقوى من الفلسفة في نهاية الأمر حبيبي.

صباح الخير من هنا إلى آخر الزمان.

حتى الكتابة صار يهيمن عليها هاجس الموت.

الكتابة التي كانت تتحدَّى الحياة صارت تكتفي بأن تتهرَّب من الموت. أليس ذلك غريبًا؟

كان الناس يخشون مقالاتي التي أرسلها من لندن وهآنذي أحاول أن أكتب عاجزةً عن إتمام جُمَلي فيما جيوش الموت تتقدم على ساحة الجسد بهمَّة عالية..

جيوش الموت..

أليست هذه الجيوش في رسائلك هي نفسها البروليتاريا التي دافعنا عنها حدَّ فقدان البيت والأهل وحَدَّ التهديد بالموت؟ ستقول لي: الهجرة نقطة مركزية في حياة الإنسان.. ولندن ليست سيئة إلى هذا الحد das iSt gutt.. وسأفهم كما فعلت منذ كنا صغارًا نلعب في المروج ونلهو ونحن نجهل أن الحب يسير بنا صوب الحياة معًا.. وأن الحياة تسير بنا صوب التفكير ضد التيار.. وأن الهجرة تترصَّدنا لكي نصير غُراة.. عراة قد يصنعون التاريخ كما كان يقول ديدرو الذي تحبه والذي أجده أنا مقربًا جدًا من الملوك والمسؤولين.. أقل نفاقًا من فولتير ورُوسُو ولكنه ليس نظيفًا تمامًا.

لا بد من كثير من الأجوبة لصنع التاريخ.

نحن نخطئ في تحجيم الأسئلة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الأسئلة تصنع قصائد جميلة.. أما التاريخ فلا يبنيه إلا اليقين.

الرومانسي لا يصنع عالمًا.. هو يكتفي ببناء قبر جميل..

أؤكد لك أنها جملتي أيها المغرور الذي أحبه. أذكر أنني قلت لك هذه الجملة من قبل، وأنك سألتني عمَّن يكون قد قالها كأنك تومئ بخبثك الفني بأنني لست قائلتَها.

أحببتُك أكثر مما يطيق الحب يا هذا. هل تعلم هذا؟

سأعيد عليك جملتك الشهيرة وأنا أكرِّر عليك: "أحبُك جدًا. هل تعلم هذا؟" كنت دومًا تقول وأنت على حوافِّ قُبلة أو عناق: "أعلم جيدًا. ولكن بعض الحقائق جميل جدًا حينما يتم تذكيرنا بها".

ملأتني بأسئلتك وملأتك بأجوبتي.

تروقني كثيرًا ثقتك في حَدسِي المعرفي كما كنت تسميه. تسألني دومًا عن أشياء أعلم أنك تعرفها أفضل مني بآلاف المرات. تنتظر رأيي ورأيك جاهز. ولكنك تقول لاحقًا من دون أي شعور: فعلًا. كلامك ينبهني إلى شيء لم أكُن ملتفتًا إليه. أو تقول: لم أنتبه إلى هذا الجانب في القضية. هل تعتقدين أن الأمر بهذا الشكل؟

Il eSt intéressant ce point de vue madame!

امتلأت بك حتى صرتُ في غنى عن العالم كله!

تركت عملي في علم الاجتماع بلا ندامة كبيرة. مشروعنا مغا كان أجمل من كل مشروع يا كاري الحبيب. وهذا يقين لا تحيط به أية أسئلة أيها الرومانسي المتنكِّر لرومانسيته.

يروقني ذكرُك بإصرار لشايلوك، الابن الصغير اللئيم لشكسبير. شايلوك رجل حامل لليقين، لا يعرف الأسئلة. ولم تتمَّ غلبته إلا بحيلة. الحيلة يقين قوي لا يحتمل الأسئلة. تقديس قرننا هذا للأسئلة ينطوي على خُدعةٍ ما. لا أدري لفائدة مَن هي، ولكن هنالك خدعة لا ريب فيها.

ماذا كنت أريد أن أقول؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

حملت الورقة على عُسر كبير وها إنني أكتب إليك هذه الخواطر بيُسر كبير.

الحب طاقة تحرك العالم كله بيسر كبير.

يوم أن قلت لك إن كتابك العظيم Das Kapital يفتقر إلى الحب، كنتُ جادة. واكتفيتُ أنت بتعبيرك العنيف اللطيف الخفيف الذي أحبه Vas au diable. كنت آتي إليك وأعانق فيك شيطان المعرفة. أليست المعرفة بنتًا من بنات أمير الظلام الحامل للأنوار: لوسيفار؟.. لو لم يَكُن سلطانًا للأنوار لما سموه لوسيفار.

الكتابةُ شفاءٌ من كل داء، بما في ذلك الموت. الكتابة وحدها تتغلَّب على الموت.

ستقول مُصحِّحًا على طريقتك الواثقة التي أحبها: الكتابة والأفكار.

معك حق حبيبي.

للأفكار أصول واضحة ولكننا لا نعرف فروعها أبدًا. الأصول معروفة والفروع هاربة من أيدي الفهم والزمن والتوقُّع.

قلتُ مِرارًا: لا يمكننا فهم الأفكار دون العودة إلى أصولها.

قلت ألف شيء أحفظه عن ظهر قلب.

لا يمكن تشكيل جيش لمواجهة التاريخ فيما الجنود يجهلون معنى التاريخ، أو يؤمنون بأن الكسل الفكري قدَر محتوم.. ولا يمكن تطوير الإنسان قبل خلق وعي بالإنسانية.. ستقول أنت إن التفسير المادي لتطور هذا الوعي أهم وستفكر في تغيير المؤسسات وهلهلة رأس المال، وكسر شوكة الدين السجين داخل الكنيسة، والأخلاق القائمة لفائدة تغيير الوعي الطبقي..

وسأرى أنا دائمًا بأن العمل على الإنسان أهم، وأن التغيير يأتي بمراوغة الطبيعة الإنسانية التي ذكرتها مِرارًا، طبيعة شايلوك في مسرحية شيكسبير: "أريد الجلد واللحم معًا".. الطبيعة التي تخلق طمع البُرجوازية المتزايد وغفلة الفلاحين والعمال التي لا يملكون مَهربًا منها.

ستقول لي: دَعكِ من الدين.. هو أفيون قديم للشعوب.

موقفي أنا مختلف. أنا أرى - مثلما كتبتُ أنت ونسيتَ - أن الطاقة الروحية التي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

في الدين يمكن تحويلها إلى طاقة محركة. وأنت هنا تفكر مثلي وأنت على حق طبعًا.

البُرجوازية تعيش في قلب التناقض.. سعيدة بمكتسباتها ومنتشية بقدرتها على ادّعاء الاهتمام بالفقراء.. تعيش بطريقة تخلق الفقر وتضمن استمراره، ولكنها تعيش أيضًا حالةً من الدفاع عن حقوق الفقراء والعمال ومسحوقي العالم، فتضمن لهم الشعور بالرفعة الأخلاقية.

ستقول: مثل الدين تمامًا، يخدعك بإخراجك من رقعة الحياة ووضع جسمك في أسوإ حالة ممكنة، ثم يؤكد لك أن ذلك هو أفضل مخرَج لخلاص روحك..

أشتاق لأيام بلجيكا.. كنت صغيرة وكنت حاملًا بحبيبتنا جيني الصغيرة. وكنت أنت رائعًا وذكيًا ومفتول العضلات على عكس أبناء طبقتنا من الرخويّات..

أشتاق لرائحة الدخان وآثار البراندي على السجّاد.

تعلم حبيبي؟ أكتب هذه الكلمات في الساعات التي تعتقدونني فيها نائمة أخلد للراحة لكي أتعافى بسرعة..

أعلم جيدًا بأنني سأموت قريبًا. يؤلمني أنني لن أكمل بحثي المُعنوَن "من أجل سوسيولوجيا جديدة لعلوم الفكر وعلوم المادة".

لي أفكار كثيرة جسمي وكبدي لن يقويا على تحملها..

أشتاق لكلماتك الخرقاء وأنت تشبه حبّنا بالقمح والذرة، أو تشبّه السعادة بأيام العطلة في مصانع الصلب الإنجليزية.. جميلٌ أنت في كل شيء وفي كل حال.. ورهيبٌ هو الموت في كل حال وفي كل شيء.

أكتب تحت أثر المرض الذي أشعر بأنه يأكل كبدي أكلًا.. تذكّر أنني كنت أقول لك لا تكتب تحت الحُمّى ستنتقل الحرارة إلى كلامك.. كنت على خطأ. الكتابة تُقلّل من الحمى. جربت هذا الأمر وأستطيع تأكيده لك.

أحبك يا رجل. تعلم ذلك. أعلم أنك تعلم، ولكن بعض الحقائق يتطلّب التذكير والتأكيد، ويتمتع بذلك.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أفكّر في كل الكتابات التي عاد أصحابها فردوها بعد كتابتها.. أفكر في الأفيون الذي يصرُّ الأمريكيون على الكتابة تحت أثره في منحى رومانسي هدّام. نوع من المحاكمة الغيابية للعالم الجديد واتهامه بكسر شوكة العالم القديم، الذي هو دائمًا موضوع للحنين الأعمى. محاكمة غيابية قاسية وخالية من المنطق والتعقُّل، بدلًا من الوقوف شديد الحساسية على أسس العالم الجديد، ثم التدبُّر في أطلال العالم القديم الذي قبِل التردّي بسرعة وبعث الأرواح الشريدة فيه ولو لمحاورتها وأخذ شهاداتها التاريخية.. أرواح تسكن المباني القديمة وتتحرك في الذاكرة على شاكلة الإنجليز الكبار في قرننا هذا.. الإنجليز وصيغتهم الجديدة التي هي الأمريكان.. أكتب هذا وأنا أفكر هنا في إدغار آلان بو، وكذا في طوماس دي كوينسي. هذا الأخير الذي أرادت لي الصُدَف أن أقرأ جُلَّ أعماله. كنت أقرأ له مُؤخَّرًا كتاب "الجريمة" متسائلة عما كان مونتيني أو إيكهارت أو القديس أوغسطين سيقولونه، تعليقًا على كتاب كهذا فيه التأمل في الجريمة كتحفة فنية.. تصور عزيزي لو أنهم قالوا لواحد من هؤلاء الثلاثة إن الذي دبّج هذا الكتاب هو أعظم ذهن في البلاد، كيف كان سيكون رد الفعل؟

تَعبُرُ كُتبُه المجنونة العاقلة حول ألف موضوع لا يشبه أحدٌ منها الآخر فتسكنك حيرة إزاء العالم. العالم بعيون دي كوينسي لا يشبه تمامًا العالم الذي نحن مُتعوِّدون عليه. إذا قرأت "تأملات في الجريمة باعتبارها فنًا من الفنون الجميلة"، أو كتابه الجميل "كلوسترهايم، حول القناع"، أو حتى كتابه الذي يشبهك تمامًا "تأملات في السياسة الاقتصادية"، سوف تجد صورة لجماعة يبدو أنها آتية من المِرّيخ. عالم غريب جدًا لا يشبه ما في كتبك. ولا يشبه العالم الذي كان والدي يتحدث عنه. والدي كما تعلم رجل مغرم بإنجلترا وبجَوْ الحرية فيها. كان يعدُّ فولتير أعظم رجل في فرنسا لسبب بسيط جدًا. تعرف ما هو؟ السبب هو أن فولتير هو أول من تنبّه خارج حدود إنجلترا إلى عبقرية شكسبير. كان المرحوم يقول: "العباقرة وحدهم يتعرفون على عبقرية سواهم. العباقرة دون سواهم يمكنهم أن يخرجوا من سطوة الزمان والمكان. شكسبير عبقري لأنه عبَّر عن العالم كله ولم يبقَ حبيس الحياة الإنجليزية. وفولتير هو العبقري الآخر الذي نظر فيما وراء حدود لغته لكي يكشف للإنجليز ثم للعالم كله بأن لديهم عبقريًا يجهل أمره الجميع لأنهم حبيسو زمانهم ومكانهم.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أعتقد أنني أهذِي فقط.

ما أريد قوله هو أن..

لا.. كنت أتحدث عن أبي وعن دي كوينسي، وعنك دائمًا.

إييه حبيبي يبدو لي أنني قضيت عُمرًا كاملًا فيك ومعك ولأجلك.

بسرعة بدا لي أنني لا أحب شيئًا في هذا العالم مثلما أحبك. قرأت مخطوطاتك. كانت تبدو لي مُملّة جدًا أحيانًا وأنا مريضة أو أعاني الوحمَ وآلامَ الوضع، ولكنك كنت تحدّق في المستقبل وتنسى أن للحاضر إملاءاته. إملاءات وحاجات ضاغطة علينا أن نتعامل معها حتى إن كان حكمنا عليها هو أنها تافهة أو أنها تقف ضد التاريخ.

أبي يحب فولتير أيضًا لأنه أول رجل وصف بإعجاب ذلك الاختراع الذي ارتاب منه الجميع: البورصة. كان يحفظ نَصّه حول البورصة من الرسائل الفلسفية.. أم أنه من المعجم الفلسفي؟ أعتقده من هذا الأخير. ليست لديّ القوة الكافية لمراجعة معلوماتي.

أحاول استكمال فكرتي.

هنالك قلق كان يسكنني دائمًا. أعتقد أنني قد حدثتك عنه مِرارًا ولكنك لا تستمع إليّ أبدًا. أعلم أنك تركّز دومًا على المذكرات الحكومية، وكتب الفلسفة وعلماء الاقتصاد. أنت دخيل على علم الاجتماع يا ماركس.

أسمع سُعالك المجنون من وراء الجدار. سعال تكاد روحك تُقتلع معه يأتيني إلى غاية هنا ليقتلع روحي خوفًا عليك.

كانت فكرتي هي أن تعرض على كبار الفكر والفلسفة والاجتماع في التاريخ نصوصًا كنصوص طوماس دي كوينسي الذي يقف برومانسية مأخوذة بجدّية كبيرة ضد كل الميراث البشري. سيقول لك هؤلاء العقلاء التاريخيون: كاتب هذه الكتب عبقري مريض علينا أن نسجنه اتقاءً لشرّه..

السؤال المُوالي سيكون: لماذا يا تُرى تحتفي بكاتب - يبدو أن مكانه المناسب هو مصحّة المجانين - لغة عظيمة مثل اللغة الإنجليزية؟ (اللغة الفرنسية أيضًا، ألم

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يسارع بودلير وهو مَن هو إلى ترجمة اعترافات متعاطي أفيون لدى كوينسي؟).

ماذا نحتاج من أعمال هؤلاء الخارجين عن قانون الجماعة؟

سؤال سوسيولوجي مُهمّ جدًا لو تعلم.

وفي الختام وكخلاصة أطرح عليك هذا السؤال: هل علينا أن نكتب عِلْمَي اجتماع لا علم اجتماع واحدًا وكفى؟ واحد خارجي والآخر داخلي جوَّاني؟

واحد مادّي والثاني مثالي؟

واحد للظاهر والآخر للعوالم الخفيّة التي نشعر بوجودها فينا وحولنا، ولكننا لا نملك تقاليد علمية كافية للحديث عنها؟

وهذا ما يقودني إلى التأمل السوسيولوجي المهم الآخر يا حبيبي حول طريقة ترتيب الملامح البشرية في وقتنا..

هل علينا أن نفهم ما تُحدثه المدنيّة الحديثة في الناس ونُصِفَه لنجيد الفهم فنُجيد التصرف؟

أم علينا أن نفعل ما تفعله أنت: نكتب لهم طريقة عمل.. ورقات بتعليمات واضحة.. خريطة طريق.. مخططات حرب.. جدول أفعال وبرنامج وجود؟..".

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

حاول ماركس في تلك الليلة أن يستجمع قُواه لتدوين بعض الملاحظات حول جول فيري، وطريقة السياسي في الخروج بكل النقاشات المُجدية عن مساراتها خدمة للضرورة الآنية، ولكن نزلة السعال منعته. ضاقت به الغرفة القاتمة بعدما سافر ذهنه ذارعًا أوروبا كلها فيما هو يقرأ كراسات جيني.

قصد البهو ربما يجد في الفضاء الرَّحب ما يسليه عن جدران غرفته التي كلما استبدَّ به المرض بدت له ضيقة، وكلما استبد به الحنين تحولت إلى سجن يمنعه من السفر داخل نفسه بخُزية. سجن عدواني يتربص به.

كان جالسًا في البهو يتأمل تمثال بومة موضوعًا أعلى إطار الموقد حينما سمع خشخشة صغيرة. التفت يمينًا صوب الرُّواق المؤدي إلى الغرف فلاحظ ضوءًا يختفي واشيًا بحركة سريعة. وقف وتقدم إلى الأمام بخطوات بطيئة باتجاه الرواق، لكي يكتشف ما من المفروض أن يكون ضوء شمعة يتضاءل خلف الباب السفلي الذي لا بد أنه باب قبو أو ما شابهه. كان الباب أسفل عدد مَهُول من الدرجات. هبط ماركس السُّلَّم كله ودفع الباب القديم القاتم.

- هل هنالك أحد؟

لا صوت. لا جواب.

- أعلم أنك هنا.. سأنادي الحارس.. سآتي بالشرطة.. من هنا؟.. مدام روزالي؟

صمتٌ مُطبق.

كانت رائحة الشمع المحترق تفضح مرور شمعة من ذلك الدَّرَج قبل قليل.

ظل يخاطب الفراغ المفزع:

- سوف أصعد حالًا وأجلب الحارس. تحمل مسؤوليتك.. حرَّك ماركس خطواته في المكان نفسه بما يشير إلى أنه بصدد العودة إلى الأعلى وطلوع السلالم لتحقيق تهديده.

في تلك اللحظة خرج من الظلام طيف متوسط القامة. كان ظلامًا دامسًا جعل ماركس يخشى أي خطر مجهول بعدما اتضح أن هنالك سارقًا أو ما يشابه ذلك مختبئًا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- مَنْ أنت؟.. توقف عندي سلاح.

خرج من الظلام شابٌ عربيٌ في مقتبَل العمر. كان يلبس لباسًا غير متماشٍ مع برودة الجو خارج الفندق.

- مَنْ أنت؟

تردد الشاب قليلًا قبل أن ينطق بفرنسية مكسورة:

- أنا حمَّال.. أعمل مع الفندق. أنا أعمل لدى السيد غريفي.

كان المشعَل موضوعًا بعيدًا في زاوية تقتل الضوء تمامًا. جلبه ماركس بما تبقَّى له من شجاعة. التفت لاكتشاف المكان فإذا به قبو داخل القبو. مكان مخفيّ خلف جدار قَشّ أو شيء كهذا لم يتبينه ماركس بالقدر الكافي، لأنه كان يصوب جُلّ تركيزه ونظره إلى الحمَّال الشاب.

- ماذا تفعل هنا؟

ظل الشاب المرعوب على صمته. وفجأة التقط ماركس حركة اكتشف من خلالها مكان اختباء طيف يعرفه جيدًا: صافية. كانت تقف إلى جانب كومة من الأغطية التي تبدو قديمة مُهمَلة. وجَّه المشعل صوبها. لم يَكُن شعرها مغطى. فهم ماركس العلاقة بين الاثنين.

- أنصحكما بالكفّ عن هذا الأمر. ما تفعله أيها الشاب خارج عن القانون.

حرك الشاب رأسه بالإيجاب لاكتشافه أن السيد أمامه لا ينوي فضح أمره.

- ميرسي مسيو.

قالها بسرعة تتوسط المسافة بين الرعب والامتنان.

جال ماركس بناظريه في المكان. اكتشف في المخبأ كمًّا ضخمًا من الأشياء القديمة. وكمًّا أضخم من الكتب في إحدى الزوايا.

اقترب ماركس فيما صافية تتحرك بسرعة وهدوء، فكّر ماركس بأنها تعدل هندامها، وأحس بالشابّ يهمُّ بالخروج فطلب منه بفرنسية بطيئة ومقتضبة:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- ابقَ هنا.

اقترب ماركس من أقرب كومة كتب ومخطوطات وجعل يقلّبها. كانت الكتب قديمة. وكثير منها مخطوط باليد. وأغلبها بالعربية. تعرّف في تقليب سريع لبعض تلك الكتب على كتاب تيرنس باللاتينية. اعترافات القدّيس أوغسطين. كتاب في النحو. شيء مبهم حول القديس دونا. نصوص مختارة لأسقف ميلاف أوبتاتوس. كان ماركس يكره اللاتينية رغم قدرته على القراءة بها.

- ما اسمك؟

- عمّار. في خدمة سيدي.

كان صوت الشاب مغلفًا بالبُحَّة نفسها. البحة الجزائرية التي تجعل الناس جميعًا مشاريع مُغنّين في الأوبرا.

- ما هذا المكان؟

- قبو يا سيدي. يبدو أنه مخبأ أو غرفة عمليات، أو مخبأ كان يستعمله أصحاب المكان قبل الأختين أليس.

- والأختان؟ ألا تعرفان المكان؟

- لا.. تعرفان ما يلزمهما فقط. ثُمَّ إنَّ هنالك سلالم طويلة جدًا. السيدتان والسيدة روزالي كلهن عاجزات عن الصعود والنزول. المكان فيه رطوبة عالية ومظلم. ربما لم تزوراه إلا مرة واحدة منذ سنين. هو قبو بلا فائدة ولا أهمية بالنسبة إليهن.

أراد ماركس أن يعرف أشياء أكثر عن الشاب وعن المكان.

- تتكلّم فرنسية معتدلة. كيف عرفت هذا المكان؟ من أين تدخل؟ ألا تخشى على نفسك؟

صمت الشاب لحظة. لمس في المسيو ماركس طيبة معينة يعرفها الشاب في الأسياد.

- عملت مع مصلحة الغابات مُطوّلًا. علمني الجماعة هناك الفرنسية. أنا أكتبها وأقرؤها. أما المكان فآمن. هنالك بوابة مخفيّة في الخلفية. مدخل للبضائع على ما

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يبدو. لكنه قديمٌ ومخفيٌ بشكل جيد وعليه أصفاد. صافية ابنة خالي. ننوي الزواج إن سمحت لنا الظروف. هي فتاة طيبة جدًا. الخطأ خطئي يا سيدي. أرجو ألّا..

التفت إليه ماركس وقد أثارته لهجته التي خرجت من الرعب والوَجَل إلى الثقة والثبات.

- عليك أن تكفَّ عن الحماقة. أي شخص سيكتشف أمرك سيدخلك السجن. أنت تدخل مِلكيَّة خاصَّة بدون إذن. هذا خطأ كبير أيها الشاب. عمر؟ قلت لي اسمك عمر؟

- عمار مسيو. شُكرًا لك. أعدك بأن.. أقصد أنني أعدك بألّا..

كان ماركس يأخذ الكتب يطَّلع على عناوينها ويضعها. كتب عربية وعلامات رياضية. كتب في الحساب. عشرات المخطوطات اللاتينية. لم يصدق ماركس الكَمَّ الضخم من الكتب التي كانت تنام أمامه.

في تلك اللحظة جاءته صافية من الخلف وقدمت له شيئًا أفزعه تمامًا لأنه لم يَكُن يتوقعها.

التفت إليها مزمجرًا:

- ما هذه الزجاجة؟

نظرت صافية إلى قريبها وحبيبها لكي ينطق هو، فقال الحمَّال الشاب:

- إنه عسلٌ صافٍ. عسل السِّدرَة يا سيدي، فيه زيت طبيعي وأعشاب طبية مطحونة. خلطة جزائرية معروفة جدًا ضد السعال الحاد. صافية قالت لي إنك تعاني التهاباتٍ وطلبت مني إحضار هذه. النتائج مضمونة يا سيدي.

نظر ماركس باستغراب إلى الزجاجة التي يبدو ما فيها أذكَنَ:

- ما هذه الأعشاب؟

- زعتر جبلي، إكليل الجبل وطحين من بذور الضرو. معي ورقة هنا تبين المحتويات جميعها مكتوبة بالفرنسية. يمكنك أن تسأل وتستعلم. الخلطة ممتازة يا سيدي.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- شُكرًا لكما. سأنظر في الأمر.

انكسر صوت ماركس تدريجيًا. لم يتوقع تمامًا هذا الحرص من خادمة أجنبية عنه لم يسبق له أن وجّه إليها نظرة ولا كلمة. ولم يشعر في أية لحظة فقدَ تمامًا شعوره العدواني إزاء الشاب المتسلّل وشريكته في الجريمة، النائلية الجميلة الحزينة الصامتة. وضع زجاجة العسل والتفت إلى ما بين يديه من كتب.

- أريد أن أعرف: لمن قد تكون هذه الكتب يا بُنيّ؟

- أحد العمال هنا قال لي إن جماعة من المدرسين كانوا هنا جمعوا كمًا كبيرًا من الكتب. يبدو أنهم كانوا يشكّلون جماعة سِرّية للعمل أو شيء كهذا. وربما لم تكُن الإدارة تحبهم. بعضهم نُفي والبعض في السجن. لا أدري ما هذه الكتب وما هدفها. أهي مكتبة خاصة أو مشروع مكتبة عمومية. أعرف أن بعض الكتب مخطوطات عربية لكتب دينية وكتب في التاريخ وكتب في العلوم. كثير منها بالخط المغربي المحلي، بمعنى أظنها كُتبًا لجزائريين. أما الأجنبية فلا أعرف. لم أطّلع على كل شيء. قلبت بعض الكتب ولا أعلم ما سبب وجودها هنا. البستاني قال لي إنهم قد حرقوا كُتبًا كانت في بيت آخر. بيت أحد المعلمين. كانوا يسمونهم جماعة الأساس. لا أعرف أساس ماذا!.. الأساسيين.

استفزّت التسمية ماركس. ولكنه شعر بوَقْع خُطى في الأعلى فطلب من الشاب الخروج. أغلق باب المخبأ. خرج من القبو وصعد بخطوات ثابتة. كانت مدام روزالي تحمل شمعةً خافتة.

- مسيو ماركس لا ينام كثيرًا.

لم ينظر إليها.

- كنت أستكشف المكان. سمعت صوتًا فحاولت إلقاء نظرة. قد تكون قِطّة أو يكون فأرًا. الجزائر بلاد تكثُر فيها الفئران.

- وتكثُر فيها القطط طبعًا. لا بد من وجود قطط تطارد الفئران. تلك سُنّة أوروبيّة.

صمتت السيدة روزا لأنها فهمت أن الكلام ليس كما أرادته. صمتت لحظةً ثم قالت:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- لا أحد يغير إرادة العلي القدير.

- لكننا نتلاعب بها كثيرًا.

- هل يكره مسيو ماركس عمل الإدارة على تطوير البلاد؟

نظر إليها ماركس محاولًا فك شفرة كلامها. من خلال حركات وجهها.

- هل تتحدثين عن البيولوجيا أم الدين أم السياسة؟

رمقته بنظرة مُتمليَّة قبل أن تختصر الوقفة:

- هذه ساعة نوم. وليست ساعة التدخُّل في شؤون لا تعنيني. سأمضي لأنام إن كان مسيو ماركس يسمح بذلك.

ختم ماركس بصوته الأجَشّ:

- راحتك راحتي.

لم يستطع ماركس النوم. ظل يفكر طورًا في كيفية تلقِّي الإدارة المحلية لمقال كمقال شوليي المنشور في الفيغارو، وطورًا يفكر في جماعة الأساسيين. مَن يكونون يا تُرى؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

حينما دخل عليه محمد شوليي كان مُبتسمًا مبتهجًا كأنه سمع خبر نجاحه أو قبول طلب يد حبيبته من قِبَل أهلها بعد طول انتظار:

- بونجووووور مسيو ماركس ! Quelle belle journée n'eSt-ce pas

- كل واحد يعيشها على إيقاعه.

- أعلم أن فيك بقايا من حب موسيقى بتهوفن. قرأت هذا في مكانٍ ما. ثُمَّ إنَّ بتهوفن في الموسيقى يشبه هيغل في الفلسفة. إرادة العظمة وتقديس التعالي على الحياة التي تصرُّ على الحقارة والإسفاف.

- فعلًا.

- نرتشف بعض الشراب أم نخرج في جولة في الأرجاء؟ الجو ليس باردًا جدًا وهذا يسمح لك حسب رأي الطبيب الذي هو أنا بالتجوُّل قليلًا، الدورة الدموية النَّشِطة عربون عافية.

- اشرب معي شيئًا. ودعني أكمل كأسي وبعد ذلك نخرج للمشي. ورغم أني قد قمت بجولة خفيفة هذا الصباح فإنني لا أمانع أن أقوم بجولة أخرى. أشعر أنني بخير هذا الصباح.

Telegram:@mbooks90

نظر شوليي إلى ماركس مَليًا بعدما كسر ابتسامته المسرحية لتصبح ابتسامة أم ترأف لحال ولدها. كانت على وجه الفيلسوف المريض علامات اكفهرار لا تشبه علامات الاكفهرار المعتادة:

- تبدو لي قَلِقًا سيدي. لا؟

- مقالك أقضَّ مضجعي. خفتُ من تبعاته لدى هؤلاء المغرورين هنا.

- الإدارة جهاز سياسي تشريعي يقبع تحت تصرف رأس المال كما يقول.. من تُراه يقول هذا الكلام؟.. آه تذكَّرت.. إنه أنت مسيو ماركس.. ورأس المال الجزائري يهيمن عليه أبناء الحرام. تعلم جيدًا أن جُلَّ الكولون من المساجين والمعارضين السياسيين الذين أُريدَ إبعادهم عن العاصمة، استجلبوا لعمران هذه الأرض أي لنهبها بلا مقابل. ماذا تنتظر من رجل فاقد للأمل كمحكوم عليه بالسجن المؤبَّد؟ هم لن يعودوا إلى فرنسا ولو جرُّوهم بسلاسل. وهم أغنى الناس في فرنسا، سواء فرنسا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

القارّيّة أم فرنسا المُستعمَرة. لهذا فهم يؤثرون في السياسة بقوة كبيرة. يشترون ذممًا داخل البرلمان. لديهم أموال قارون.. وقارون في هذا المنظور رجل من فرنسيّي الجزائر.

تأمل ماركس كلامه لحظةً ثم ختم الموضوع:

- رُوَيدكَ بُنيّ. الأمور معقدة جدًا. نظريتي أوروبية محضة. يوجد خلف كل جريمة جهاز يحاربها أو يعمل على متابعتها. سيغتالونك ببساطة فيما أراه. لا فرنسي في الجزائر يتصرف كإنسان مسؤول عن القيَم الإنسانية. ألاحظ سلوكهم، يبدون جميعًا كحارس السجن أو كالجلّاد. يكسبون مالًا وفيرًا ولا يتمتعون به. كل ما يهمهم تتبُّع سرقات الأهالي من محاصيلهم وهي كميات صغيرة يُعيلون بها أهلهم.

صمت شوليي قليلًا، ثم أردف قائلًا:

- فعلًا سيدي. أستمع إليك وأتذكّر مئات الوضعيات التي مرّت بي تصادق على كلامك.

استمع ماركس إلى كلام طبيبه البديل الشاب قبل أن يقاطعه مقاطعةً صريحةً سائلًا:

- قل لي يا محمد.. هل تعرف جماعة اسمها الأساسيون؟

صعق السؤال الطبيب العربي.

- وكيف عرفتهم أنت؟

- لي مصادري.

- يا لكَ من رجلٍ عليمٍ مسيو ماركس!

استغرق لحظة يتأمل في وجه ماركس الذي لا تصدر عنه تعابير كثيرة، عدا عدوانية اللّحيَة التي تقف في منتصف الطريق بين وجه محارب قديم ووجه نبيّ يعلم ما لا يعلمون.

- هم جماعة كانت نشطة منذ عشرين سنة أو أكثر. جماعة ذات ميول ثورية.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

على الطريقة البرودونية وطريقة باكونين. ويعملون كجماعة سرية. اشتدت شوكتهم على أيام ثورة المقراني هنا بالجزائر، منذ عشر سنوات أو أكثر. ساندوا الثورة كثيرًا. كانوا يوزعون مناشير صغيرة بشكلٍ سِرّي تتقصّد إدانة ما تفعله الجيوش الفرنسية منذ نصف قرن أو أكثر من ذبح وتقتيل، وأكثروا الحديث عن قانون سلب مِلْكيّة الأراضي الذي أحدث هرجًا كبيرًا، ويمكن اعتباره السبب المباشر في مجموعة كبيرة من الثورات هنا وهنالك. الخلاصة أن الإدارة هنا لا تسمح حتى بالحديث عن الأمر.

- هل يمكن أن يكونوا قد سكنوا هذا الفندق مثلًا؟

- هم في كل مكان. الفندق كان مرقدًا تابعًا لسلك التعليم. والأساسيون جُلُّهم معلمون. لا غرابة في ذلك. هل تحدثت إلى أحدهم أم ماذا؟

صمت ماركس برهةً قبل أن يقفز على سؤال رفيقه:

- هل كانوا يعملون كجماعة سِرّية؟

- حسبما بلغني من نُتَف الأخبار هم جماعة ثقافية. مجتمع مفتوح رغم ظاهر الانغلاق. أهم ما ميّزهم هو رفضهم لسياسة الجيش الفرنسي، موقفهم عند نشأة تنظيمهم كان كموقف أشهر رجل آنذاك: أليكسيس دو طوكفيل. مؤلف تحفة "الديمقراطية في أميركا".. الرجل الذي كان نصف عقله يقبل استعمار الجزائر لأن الاستعمار صار واقعًا لا نقاش فيه، فيما كان نصفه الآخر وريث الثقافة الإنسانية للنهضة والأنوار يرفض الفظاعات التي يرتكبها الجيش على هامش مَهمّته الأمنيّة. التقتيل والاستيلاء على الأملاك. تعرف جيدًا بأنه في رسالة 1841 الثانية قال بصريح العبارة:

- مَهمّتنا المُحضُرة لهذه الشعوب تتسم بكل السمات البربرية في أبشع صورها.

حرك ماركس رأسه في إيماءة تقول إنه يعلم جيدًا ما يتحدث عنه صاحبه الطبيب المُهجّن.

- تعرف يا مسيو محمد؟ أعتقد أننا صرنا نغذي التناقضات بشكلٍ صارخ في أزمنتنا المريبة هذه.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ساد صمتٌ ثقيل. كأن ماركس ينتظر بقية الحكاية فيما الطبيب الكرغلي ينتظر باقي تأملات ماركس السريعة الدقيقة.

- ماذا حدث لهم بعد ذلك؟

- نشطوا كثيرًا في المدارس الأولى التي أشرفت عليها الإدارة. كانوا ينشرون أفكارًا كان الجميع يعتقد بأن الإدارة الفرنسية في الجزائر تتجاوب معها بشكلٍ إيجابي. وكان المفروض هو أنه بعد عمل اللجان البرلمانية عقب عشر سنوات من الوجود الفرنسي في الجزائر، وفي ظل تداخل المعطيات والقراءات المختلفة، وفي ظل تضارب الأرقام حول الحصيلة الحقيقية لعشر سنوات من التواجد الفرنسي في الجزائر، كان على الشعب أن يقرر عبر ممثليه إن كان التواجد مُجديًا، وإن كانت هنالك جدوى من هذا الجهد السياسي والمالي المُكلّف..

- النتيجة طبعًا هي أن الحكومة قد تلاعبت بكل ذلك وقررت البقاء في الجزائر. أليس ذلك هو ما حدث؟.. بلى.. إن ذلك هو ما يحدث دائمًا.. سؤالي هو: ما دخلُ الأساسيين وما موقفهم من كل ذلك؟

تناول محمد كوبَ ماءٍ كبيرًا، وجعل يتفرّس ماركس مُلاحظًا أنه كان يستعمل بين الحين والآخر إبهامه اليُمنى لكي يتّكئ قليلًا على الجزء الأيسر من الأضلاع التي تغطي قلبه مُغمضًا عينيه. تساءل إن كانت عضلة القلب هي التي تؤلمه أم أن التعقيدات في الجهاز التنفسي تلقِي بآلامها على القفص كله.

أومأ إليه دون كلام "هل أن الأمور جيدة على مستوى الصدر؟" فأجاب ماركس بأن الأمور بخير، مع إيماءة بالمواصلة. رشف الطبيب رشفةً أخرى من الماء المجاور للنبيذ الأبيض الذي كان أمامه قبل أن يواصل:

- لقد استعانت الإدارة هنا بهؤلاء المعلمين المُتنوّرين، وكذا بعض الأطباء وخُدّام الدولة ممن لهم اتصال مباشر بالجمهور الواسع، لكي يقوموا بدور جواري مع الأهالي ومع أعيان الأهالي خاصة، لكي يقنعوا الناس بأن ما حدث لن يتكرر، وأن الإدارة تتدارس إمكانية إجلاء الجيش عن الجزائر نتيجة لعمل لجان البرلمان، وللقوانين التنظيمية التي تهبُ كراسي لبعض الأهالي المؤهلين لتمثيل الشعب، وهو أمر جيد وإن كان هينًا في العموم. نفث كل ذلك ريحًا جميلة تحمل ملامح

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

روح شفافة توّاقة إلى تجاوز مآسي كلوزيل ولاموريسيار ودوما وغيرهم من جنرالات الدم كما كان الأهالي يسمونهم.

صمت برهة.

- التاريخ مليء بالنُفايات. ككل شيء جيد في الطبيعة، لا يتم أمره إلا بوجود قشور ونُفايات. الأجمل هو ما يخرج في النهاية منه، ولو على غير قصد. زوجتي جيني لروحها السلام كانت دائمًا تقول لي: "تاريخ الأدباء خير من تاريخ المؤرخين". هؤلاء الأخيرون تعلموا ألّا يروا إلا ما هم متعودون ومبرمجون على رؤيته.

- فعلًا.. ما لا نُؤرّخ له هو الأجمل دائمًا.

- النتيجة هي أن اللجان قد قررت نجاعة التواجد الفرنسي "الهادئ" في الجزائر. نوع من الأمل الذي يُعين على الاستمرار. أو نوع من التعب المنطقي المنتظر من الحرب والتقتيل الذي لا يقف في وجهه شيء.

صمت مرة أخرى.

- فهم المعلمون الحالمون الوضع، واكتشفوا بأنه قد تم تقرير طريقة التعامل معهم من قبل أن يبدؤوا في الحركة.

- أنا كتبت عن هذه الوضعية بالذات كتاب "الطُوباويُون".. أعتقد أن أساسييك هؤلاء من هذا القَبيل.

- في فلسفتهم التي يعلمها كل من يصل إلى الدائرة الثالثة يؤمنون بالتدرُّج في تحقيق الهدف. وهم في معظمهم مُعلّمون كما قلت لك، لذلك فتكوين الناس هو هدفهم الأساسي. يبقى أن لهؤلاء عُسرًا كبيرًا في المدارس التي يقومون بعملهم فيها. هنالك حصار كبير كان مسلطًا عليهم. لم تكُن عين الإدارة والأمن عليهم تنام قَطّ. وانتهى الأمر بقوائم للمغضوب عليهم. ثم بدؤوا يعيدون توجيههم في مناصب عملهم، شيئًا فشيئًا، من أجل تفريق شملهم. وهي طريقة ناجعة لمعاقبة الأخطر من بينهم.

صمت الطبيب الشاب، وانقطع ماركس عن الأسئلة. خرجا بدعوة من ماركس.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

سارا قليلًا على الطريق المحفوف بالأشجار المفضي إلى الفندق وكلاهما غارق في أفكاره الصامتة. وفجأة سأل ماركس:

- محمد صديقي.. هل يمكنك أن تنظم لي لقاء مع أحد المعلمين النافذين في هذه الجماعة؟

تفاجأ شوليي من السؤال المباغت:

- الواقع.. في الحقيقة.. أعتقد أن..

وضع ماركس يده القوية على كتفَي صاحبه في وضعية غير متوقعة، ونظر في عينيه ثم قال:

- أعلم أنك منهم يا صديقي. هل يمكنني أن ألتقي بأحد النافذين في الجماعة. لي مجموعة من الأسئلة أود طرحها عليه. هذا التنظيم مُهمّ جدًا بالنسبة لي. أود كتابة شيء حولكم.

تكهرب وجه شوليي:

- أووووه.. على مهلك مسيو ماركس. كيف "حولكم"؟ أنا يا سيدي لست من الجماعة.

- شيءٌ ما يقول لي بأنك منهم. أو ربما أنت مُقرَّب جدًا من الجماعة.

صمت شوليي بعدها مُحافظًا على ابتسامة تعجُب من ظن ماركس. ابتسامة ابتلعها التفكير فيما ينبغي عليه قوله أو فعله في هذه المرحلة من الحديث.

تحمَّس ماركس للحديث كثيرًا. راودته ألف فكرة إيجابية أنسته ألم عضلة القلب.

في تلك الأمسية الهادئة لم يَكُن ماركس ينتظر أحدًا. وكان يعلم أن موعد ذهاب البريد بعد يومين فقرر كتابة بعض الرسائل.

"عزيزي فريد

منظر الشارع الجزائري غريب جدًا. مشهد لشارع تتقاطع فيه علاقات غريبة كعلاقات السادة أو السيدات والخدم/العبيد.. علاقات عابرة للجنسية بين فرنسيين يفعلون كل شيء لتمييز أنفسهم عن العرب، وعرب لا يملكون أية فرصة لاكتساب

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

شكل الفرنسيين الذي سيفرغ جيوبهم المتعبة من كل قرش يقتاتون وأهلهم به. المال كما تعلم أكبر عائق بين الطبقات، لهذا تجده أرضيّة أكبر الصراعات بين الطبقات المتطاحنة. الأخطر في المال طبعًا هو بُعده الرمزي. تزيين المعصم بساعة فاخرة قد يكون علامة تنتقل بالأوروبي من طبقةٍ إلى أخرى. أذكر مُلاحظاتك البائسة حول النوع البائس من السجائر الذي كنت أدخنه، وكيفية توددك إليّ أيام تعارفنا الأول بإهدائك إياي سجائر غالية الثمن، كنت تستطيع شراءها فيما أنا كنت مخيرًا بين شرائها وبين إعالة جيني والبنتين. المهم، فلنعُد إلى أحفاد البربر العجيب أمرهم هؤلاء. يروقك في سادة الجزائريين ذلك المنظر المحافظ على ما تبقّى من أبّهة برغم الفقر الذي تنبئ عنه ملابسهم. أعتقد أن العمل السوسيولوجي كله سيكتفي في الجزائر بدراسة الملابس والأقمشة وشكلها العام. أعلم أنك ستقول لي كما قلت مِرارًا بأن سوسيولوجيا الأوروبي في هذا القرن، العظيم في رُقيّه بقدر عظمة تفاهته وتناقضاته، يمكن اختزالها في دراسة موائد طعامه وتقاليد جلوسه إليها، والنظام المعقد الذي يضبط الإتيكيت كما يسميها الباريسيون المُصرُّون على إبعاد غير الباريسيين عن عالمهم شديد الأناقة. هنا في الجزائر يكفيك تأمُّل اللباس لتعرف الطبقة العاملة التي تلبس دومًا ثيابًا رَثَّةً بشكلٍ مبالَغ فيه. قشابيات مرقّعة إلى درجة ضياع ملامح القماش الأصلي الذي صُنعت منه، ومنظر وجه ترهقه المعيشة المتعبة للعامل الذي يعمل أكثر مما يجب بكثير، ولا يكسب القُوت الكافي لسد حاجاته. كل ذلك وتراهم صامتين يقبلون الوضع.

تُراه الخوف من آلة الاستعمار التي رأوا جيدًا ما يمكنها فعله في الثلاثين سنة الأخيرة؟ تلك الثورات التي تحدثنا عنها سواء هنا أم حتى في الهند كان إيقافها يمرُّ دومًا بدرجات عالية من القسوة. أفكّر في كتاب جديد عن الجزائر أسميه نقد العقل الاستعماري. أفكر فيه جدّيًا. ولكن الصحة قد تخونني.

أشعر فعلًا بالخروج التدريجي للحياة من جسدي. الأفيون الذي كتبه لي الطبيب والذي أحضرته رُفقتِي من فرنسا يجعلني أهلوس. انتبهت إلى ذلك. كثيرًا ما كانت السيدة أليس تقول لي: السيد ماركس مُتعَب جدًا أعتقد أنه عليه أن ينصرف.

كنت أشعر بأنني لم أكُن لا متعبًا ولا مصابًا ببعض النزلات أو نوبات السعال المجنون التي تُؤجّج حالتي، ساعتها كنت أعي بأنني أتكلم بكلام غريب، وأن

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

هاجس السيدة وهي تبعدني عن صالون الفندق هو المحافظة على ماء الوجه لا أكثر.

الجزائريون غاضبون بشدة ولكنهم لا يتحركون.

غريب أمرهم.

ما يحدث على يدَي المستعمر هنا لا يقبله أحد.

أعتقد أنني قلّما رأيت قسوة سلّطها بشر على بشر مثل هذه التي أراها هنا، موجهة من الفرنسيين صوب الجزائريين.

والأغرب في كل هذا هو أن الذي يفعل ذلك هم سادة مثقفون جدًا. كلهم مثل جول فيرْي في نهاية الأمر رجال نظيفون جدًا بأيدٍ لا تتعفف عن أن تكون وسخة.

أنا مشتاق جدًا لجلساتنا تلك. اشتقتُ إلى فرنسا كثيرًا. أعلم أنك في إنجلترا ولا تستطيع زيارة فرنسا في الوقت الحالي. ولكنني كثيرًا ما ألتجئ من آلامي الحادة بغرفة الذكريات المريحة. هناك أسكن في انتظار الموت أو العودة إلى الحياة".

أراد كتابة رسالة أخرى إلى طبيبه ولكنه أرجأ الفكرة قليلًا. ربما بعد ساعة أو ساعتين.

شعر ماركس بالرغبة في شاي، ولكنه خشي من أن الوقت متأخر جدًا، وأن الشاي لن يفعل إلا منع النوم عنه. النوم عادة ديمقراطية، يتقاسمها السادةُ مع العبيد بعدالةٍ ينذُر أن توجد في مكانٍ آخر عدا الفراش.

وبعد عدة محاولات لتغيير وضعية النوم المعتادة: على الجانب الأيمن الذي يُقلّل نزلات السعال. وبعد استيقاظه من محاولات النوم الفاشلة مرتين، واحدة للتبوُّل، والثانية لتناول ملعقة من عسل صافية الذي جرَّبه بعد أن طمأنه شوليي إلى أن الخلطة معروفة وفعالة جدًا، لكي يكتشف لاحقًا أن مفعولها ساحر في جعله يتخلص من التهابات الحنجرة، ثم اقتنع أن موعد النوم لم يَحِنْ بعد.

أخرج كراسة جيني. نظر إليها مَليًا مُتذكّرًا أنه كان قد قرر ألا يقرأها ثانيةً في ساعات الليل، لكي لا يشتد هيجانه العاطفي فيمنع عنه النوم، إلا أنه شعر بخطأٍ ما في القرار. الليل هو المكان المناسب لاجتماعه بجيني. الليل ساحة الحقيقة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المركزية. وجيني هي الحق الذي يعلو ولا يُعلى عليه.

"كم اشتقت إليك أيتها الشقيّة!" فتح الكراسة عند الصفحة التي توقّف عندها وأنشأ يقرأ:

"... أتساءل والمرض يتسلل إليّ من كل مكان.. كيف تُرى تكون كتابة المريض؟

ماذا نفعل يا تُرى بكتابة مريضة؟

أفكّر في انتظار الشفاء، ثم أفكر في أن الموت لا يفكّر كثيرًا في انتظار شفاء ولا مرض.. هو مثل الصغار يفعل ما يحلو له وكفى.

اشتقت إليك وأنا هنا. مشتاقة إليك وبيننا جداران في هذا البيت القاتم.. الأولاد بعيدون ونحن هنا تحت رحمة الخدم والطبيب والممرضتين.

لولا الصديق الراقي فريدريش إنغلز لكنّا مُتنا جوعًا أو مرضًا أو جفافًا.. لربما كنا سنموت لانقطاع الكتب عنّا..

هل تعتقدُنا نعيش بلا كتب أنت وأنا؟

لا.. قطعًا لا.. عشنا لها وبها، فكيف نعيش بدونها ولأجل شيء آخر سواها. فيردينان شقيقي الحبيب الذي قاطعته مُطوّلًا لأنه تعقبنا مجبرًا، وأسهم بشكلٍ ما في طردنا من بيتنا الأول، كان يقول لي: "الكتب ستدمركما، أنت وزوجك المجنون. وما بقي من دمار ستتكفّل به أفكار ذلك اليهودي القروي، هو حَذِق ومُثقّف ومع ذلك فهو لا يعرف ميزانًا لأي شيء في الوجود".

بيت بلا كتب هو كالمقبرة يا عزيزي. أما بيت أخي فيردينان فكان مليئًا بالكتب التي يتوجّس منها هو خيفة. وذلك هو الخسران المُبين.

تعرف؟ بعض الناس يرى النور قبل غيره.. نحن ننتمي إلى أرضٍ واحدةٍ ولكن آفاقنا مختلفة. وكما تقول لي دائمًا: "المسألة مسألة عتبات.. كلٌّ والعتبة التي اختارها لنفسه".

ماذا يفعل مَن يرى النور قبل غيره؟

يبصُر الناس بما رآه؟ سيعدُّونه مجنونًا..

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يربيهم على "نقد العالم القديم" كما تقول أنت دائمًا؟

يلزمك قرنٌ من الزمن لربح مائة شخص في صفِّك..

قلتها لك سابقًا وأكررها: الشيوعية لا مستقبل لها، هي لم تُولد بعد، والبُرجوازية واقفة لكي تمنعها من أن تولد من جديد.. علمًا أنها لم توجد بعد.

كيانٌ مبنيٌ على القطيعة عن كل شيء، جميلِه وقبيحِه، لذا إذا جاء في المستقبل شيء جميل فإن الشيوعية ستطرحه مثلما يطرح الجسم كل طعام فاسد.

لستُ رجعيّة صديقي.

لا.

تعلم جيدًا أنني لست رجعية.

كل ما أفعله هو أنني أحاول أن أتأمل سبب وقوفك ضد جُلّ الثورات التي تشبه أن تكون تحقيقًا لبرنامجك السياسي الذي نعلم أنا وأنت بأنه غير موجود، وأنه، إن وُجِد وسُمّي ماركسية، فإنك ستكون غير ماركسي كما قلتها وكتبتها من قبل.

لا تستطيع أن تكون ماركسيًا لأن الظرف التاريخي الذي يتماشى مع الماركسية ليس جاهزًا، ولن يجهز إلا بعد مراحل عديدة بمعارك عديدة، لم نكسب إلى غاية اليوم إلا واحدة منها بشكلٍ جزئي: وعي الطبقة العاملة بالعمل الخبيث للبُرجوازية على قهرها باستعمال أجهزة القمع الشرعية للدولة..

ستلومني على هذا الكلام ولكنني سأتركه لك وسيسقيه ماء الموت من بعدي: تعلم ما العائق الأكبر الآخر أمام نظريتك؟ إنه عطش السماء.. رغبة الناس في الميتافيزيقا.. ليست ميتافيزيقا السلع التي تتحدث عنها ببراعة في "رأس المال"، بل تلك الميتافيزيقا المَقِيتة التي تُحيل على الدين، على الرَّبّ، على المسيح، على الخلاص من العذاب..

كونك أهملت هذا العنصر في نظريتك هو ما يُرشّحها للفشل.

وهذا ما ستدور حوله مُلاحظاتي حول السوسيولوجيا الضرورية لعلوم العقل وعلوم المادة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

دعني أشرح فكرتي أو ما أعتقد أنه سيكون فكرتي إن لم يبتلعها الموت.

تعرف لماذا هو قوي مهيمن هكذا الموت؟ إنه يتقوّى من خلال ابتلاع العباقرة وشفط أفكارهم وتشرُبها. الموت كائن عبقري. وككل عبقرية فهو مُدمّر من الداخل ومن الخارج.

أولًا:

هنالك بناء معقّد في المنابر التي جاءت لتعوّض الكنيسة كمؤسسة للتفكير. الجامعات تُعمّق البحث في مواضيع معينة، مُحاوِلةً جعل كل المعارف قابلةً لتحويلها إلى نماذج. والإنسان بكل المقاييس وعلى تعدُّد التجارب غير قابل للنَّمذَجة. لذا فكل عمل نظري حول الإنسان سيكون مفتقرًا إلى النمذجة.

ثانيًا:

كل فكرة انقلابيّة تحمل بذرة جديدة أو حتى هجينة سيعارضها الجميع. الثورة الفرنسية جاء بها الجوع وليس الوعي. الكومونة كانت مسألة عدوان أجنبي على الأرض.. لولا الهجوم البروسي لكنّا اليوم أمام التطوُّر المذهل لسياسة نابليون الثالث.

ليست الأفكار هي التي تصنع الثورات. وتعرف جيدًا أنني لستُ من الذين يؤمنون بحتميّات التاريخ مثلك. التاريخ كالمجتمع بناء فوضوي ضخم.

ثالثًا:

ما لا يُقال:

كثير مما يقف بين الطبقات لا يتم قوله. فالتفسير المادي للأشياء يقف في وجهه جدار ما لا يُقال. العرض الناصع البليغ الذي تقدمونه، أنتم كبار الخطباء والثوريين، يتخلّله صَخَب هادئ ومُزبِك للأشياء التي لا يجدها العامل البسيط والمواطن إپسيلون في كلامكم، لأنكم لا تقولونها ولا تؤمنون بها، وهذا العامل المواطن البسيط لا يجد لها تعبيرًا في عالمه الذي تُسيّجونه بالمصطلحات.. وينتهي هذا الشخص المسكين بالتهيُّب منكم لأنكم لا تجيبون عن كل ما يجول داخله من أفكار. لهذا تجد الجموع مستعدة لإعلان العداء للمُفكّرين دائمًا وببساطة مربكة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

البُرجوازية تعمل على سحق الطبقة البروليتارية من زاوية الوجدان أيضًا. تذكّر ما كنت تقوله حول الأسياد في مَزَارِع القطن وغيرها في أميركا؟

كنت تقول بأنهم - على عكس عمال مانشستر - يعيشون في فضاءٍ واحدٍ مع العمال، وأن هذا ينقص من حِدّة المسافة بين السيّد والعَبْد على عكس المسافة الأوروبية الموروثة بين البُرجوازية وعالم العمل.

الواقع هو أن ما يخلق المسافة ليس الموقع الجغرافي بل هو المسافة الوجدانية التي لا تقبل الاختزال".

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

جاءه فيرمي باكرًا مثلما كان الاتفاق.

- لا أدري كيف أشكرُك على هذا الوقت الثمين الذي تُسخِّره لي.

- رُفقتُك سعادة وشرف مسيو ماركس.

لباس فيرمي يبدو دائمًا هو نفسه. سُترته الصوفية الخضراء والرداء الأسود. الحذاء العالي الطويل شديد الأناقة. كان ينظر إليه في أبّهته وملامحه الوسيمة شبه الأنثوية التي لا يربطها بعالم الذكورة إلا اللّحيَة التي تشي بكثير من الاعتناء اليومي، والتي تعينها على جبهة الذكورة نظرة المسؤول في الجمهورية. الجمهورية التي يقف على رأسها رئيس يشبه في كل شيء إمبراطورًا.

- هل تصلُ الرئيسَ ورجالَه كل تفاصيل ما يحدث هنا؟

- نعم.. بأدق التفاصيل.

صمت ماركس قليلًا. تردّد لحظاتٍ قبل أن يواصل.

- أتساءل كيف يفكر الرئيس وهو يخرج من مقصورات الشرق الكبير، أين فكّر الناس الأشد نباهةً في تاريخ أوروبا، طيلةَ قرون طويلة، في الحرية والثورة والإنسانية وحقوق الإنسان، ثم يقرأ تقارير حول التدمير المنهجي لجماعة مُصلحين كجماعة الأساسيين مثلًا؟

صعق فيرمي لهذه الجملة.

- مستحيل أن يكون خبر الأساسيين قد وصلك في غضون هذه الأيام القليلة الماطرة المُؤثّثة بالمرض التي قضيتها بيننا مسيو ماركس. يبدو لي حقًا أنك لا تلتقي فيها بأحد. هل أستطيع أن أطرح سؤالًا مُتطفّلًا عمّن أخبرك عنهم؟

صمت ماركس. كان يعلم ويخشى أن هذا السؤال سيُطرح عليه.

- إذا كان وجودي هنا يسبب لكم الحرَج يا عزيزي فأنا مستعدٌ للعودة إلى الكوت دازور في أقرب فرصة. كما أن زيارتكم ليست واجبًا إن كانت إدارة الحاكم تتعقبكم أو تزعجكم بسببي.

حرك فيرمي ذراعيه مُبتسمًا ومعبرًا عن بهجةٍ لم تَكُن حقيقية.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- لاااا.. العكس تمامًا مسيو ماركس. الجزائر منورة بزيارتكم. ثُمَّ إنَّ الحاكم بصدد تحضير مأدبة عشاء على شرفكم سيحضرها خيرة رجال المستعمرة. أقصد الجزائر. أقصد فرنسيينَا. وهنالك بعض الدبلوماسيين وبعض الأعيان من كل مكان. ثُمَّ إنَّ هنالك زوارًا مرموقين من ألمانيا وأميركا وإنجلترا موجودون في الجزائر قد يكونون حاضرين. ستكون حفلة كبيرة تليق بمقامكم مسيو ماركس.

انزعج ماركس للحرَج الذي شعر أنه قد وضع فيه مُضيِّفه الكريم.

- لي سؤال يُقلقني منذ أسبوع وتحرَّجت في سؤالك.

- تفضل سير. يو آر وِيلكُم.

- هل حدث شيء لشوليي؟

صمت فيرمي.

كرَّر ماركس بإلحاح وقلق:

- لقد حدث له شيء بسبب مقال لوفيغارو. لا؟

- ليس هذا هو السبب المباشر. ولكن كلامه أحرج الحاكم كثيرًا. هو شابٌ في وضعيَّة خاصة جدًا. وله من جماعة شوليي مَن يهتم لأمره كما تعرف.

شرح فيرمي لماركس أن بعضًا من أعمام شوليي مسؤولون وأصحاب ثروات ونفوذ ومعارف مهمين في الجمهورية. وأنه ليس من السهل إزعاجه. وبعد عدة مناورات بلاغية لتقديم الأمر بشكلٍ سلس، قال فيرمي بصراحة أثقلت لسانه، في حين أن ماركس قد ارتاح لها كثيرًا، بأن هنالك ملفًا قد فتحه البوليس لشوليي وأن كل تحركاته محروسة.

- لا أفهم جيدًا. ألا يوجد من يراقب المقالات المزعجة في الصحافة القارِئية؟

- حرية الصحافة غيرت هذا الأمر تمامًا.

- أعرف ذلك ولكن حرية الصحافة منذ تم التصويت عليها لم تُلغِ الرقابة على الجرائد. لا تنسَ أني قضيت كل حياتي في الصحافة يا عزيزي.

- الواقع هو أن كثيرًا من محرري لوفيغارو هم من بقايا الكومونة. لهذا تجد

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عندهم حرية معينة في التعامل مع المقالات الناقدة وحتى اللاذعة. يعتقدون ذلك صمام أمان للديمقراطية كما كان طوكفيل يقول تحت قُبّة البرلمان وعلى صفحات الجرائد.

- طوكفيل ولامارتين وغيزو هم أغرب ثلاثة فرنسيين في هذا القرن الصاخب. تجد لديهم الشيء ونقيضه دائمًا.

قال فيرمي بابتسامة تصله بمحدثه ببساطة:

- ربما يكون هنالك رابع يُضاف إليهم ببساطة.

ابتسم ماركس من رواء لحيته المضادة لكل تعبير على الوجه لا يمرُّ بالضرورة بالعينين:

- جول فيري.. أنا متأكد أنك تقصد جول فيري. رجل التناقضات كلها.

- فعلًا.. يبدو تلميذًا وفيًا لطوكفيل.. وإن كان هذا أعرق وأعمق في تربية التناقضات.. كان يشعر بمسافة مزعجة تقف بينه وبين المغاربة. تعوَّد على النظر في عيون الجرمان والفرنسيين والإنجليز. تحدث مِرارًا عن العمال البسطاء والأجَراء المسحوقين والبروليتاريا الذين نَذرَ العمر دفاعًا عنهم فيما هم ينظرون إليه ويحركون رؤوسهم إيماءً بالموافقة على كلامه، إلا أن عيون الجزائريين كانت تقول شيئًا آخر عدا ما كانت عيون أشباههم في أماكن أخرى تقوله. شيئًا تأسف لأنه شعر بعمق بأنه عاجز عن فهم هؤلاء المسحوقين المعذبين في الأرض.

- هنالك تعبٌ عميقٌ في عيون هؤلاء الناس. تعب يفضح قنوطًا عميقًا منّا ومن أفكارنا النبيلة. هم يخشون نبيلنا بقدر ما يخافون من جنديُنا المسلَّح. أشعر بأنه ذات يوم سيكون علينا أن نترك هذه البلاد لأصحابها يا صديقي. هكذا سيتغير شكل عيونهم ونظراتهم إلى الأحسن.

ألقى فيرمي نظرةً دائريَّةً عصبيَّة حوله، ثم ابتسم ابتسامةً متشنجةً وقال:

- ربما يكونون من عمال الليل.

- تُذكّرني بعمال البحر. أجمل كتاب للمسيو هيغو.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- آه.. كتاب جميل على ما أذكر. مَرَّ وقت طويل على قراءتي له.

تأمَّل ماركس وجه فيرمي الذي كان يبحث بقلقٍ عن زوايا للراحة.

- كنت أتحدث عن الجزائريين عمومًا. لا عن هؤلاء القابعين هنا. والغالب أنهم عمال الهباء. لا يبدو على رؤاد المقهى هنا أنهم سهروا الليل كله يعملون.

لملم فيرمي أشلاءه حاكًا راحتيه، وآخذًا نَفَسًا عميقًا استعدادًا لحربٍ كان يكرهها جدًا، ثم قال:

- لا أعتقد أن سوسيولوجيا الأوروبي تفسر جيدًا سلوك هؤلاء الناس أو قناعاتهم. هم غريبون جدًا. لا أحد يفهمهم جيدًا. حتى هم فيما بينهم ليسوا يسيرين على الفهم. مشروع محلي يستعصي حتى على نفسه.

رمقه ماركس بنظرة حادَّة:

- تقصد أن نظامنا لا يعترف بهم. عقلنا الذي لا يريد أن يعترف للعمال الأوروبيين بالحق في الراحة والحياة وأدنى الحقوق، كالتعويض عن المرض والفترات التي يستعصي فيها العمل لأسباب قاهرة كالثلج الذي يقطع الطريق، أو أشغال التصليح التي تغلق المَحالَّ، أو حتى الجوائح التي تُفسد المحاصيل، هذا العقل هو نفسه الذي يرفض أن يفهم الموريسكيين. عقل يتكلم عن التخلُّص من العبودية ويُقدِّس أفكار فولتير وديدرو ولوماني ومونتسكيو، ولكنه يرفض تصوُّر العالم من دون عبودية.

- العبودية؟

- البروليتاريا هي عبوديَّة العصر الحديث.

- معك حق مسيو ماركس.. ولكننا نرث أحيانًا وضعيَّاتٍ لا تمنحنا كثيرًا من هوامش المناورة.

- هذا ليس كلامَ واحدٍ من أبطال الكومونة.

ابتسم فيرمي متألمًا لِلَسعات الحديث المتكررة ثم صمت.

واصَلَا الجولة داخل حديقة التجارب التي راقت كثيرًا لماركس، ولم يفعلَا شيئًا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

سوى تبادل أسئلة وأجوبة حامضة، لم تتمكّن من إخفاء حرج فيرمي من الانتقادات العميقة التي صدرت من ماركس.

فجأةً قال فيرمي دون مقدمات:

- الحفل على شرفك قريب جدًا. سوف يأتي أناس مثقفون كثيرون، وسيكون بينهم من سوف يأتي خِصّيصًا لإثارة مواضيع محرجة كهذه التي نتحدث فيها طالبًا رأيك أمام الحاكم. أتمنى ألّا تُحرج السيد الحاكم، هو يحترمك ويحبك كثيرًا ومنصبه يجبره على أشياء قد لا يكون رأيه فيها من رأيك يا سيدي.

شعر ماركس بثقلٍ كبيرٍ على قلبه.

صمتَ مُطوّلًا وهو يعاين الأشجار دون الحيوانات القليلة التي كانت تتبرّز بخرْية تحتاج سوسيولوجيا خاصة بها لتفسيرها على أتم وجه. فجأةً قال بمثابة الخلاصة:

- أنا مَدعُوٌ للمصادقة على البربرية والتعذيب الذي عاشه هؤلاء المساكين تحت ضغط الإدارة الكولونيالية.. هذه هي المأدبة باختصار.

شعر فيرمي بسماء الجزائر التي كانت زرقاء على غير المتوقع في تلك الصبيحة تسقط على رأسه:

- ليس هذا بالذات. إن هي إلا ساعات ثلاث نصفُها موسيقى وعزف جميل ومحادثات جانبية حول ألف موضوع من حاضر الأخبار.. لن تنزعج إلى هذا الحد. أنا فقط أقول ما قلته لكي أجنّب الجميع الشعور بالحرج.

ختم المتجوّلان جولتهما بسرعة بحجة التعب. اعتذر ماركس لرفيقه وصعد إلى الغرفة دون أكل. كانت الشمس قد أرهقته بسطوعها المفاجئ.

أراد النوم. ولكنه لم يستطع أن ينام ففضّل كتابة رسالة لفريدريش إنغلز لعلمه بأن البريد ينطلق في اليوم الموالي:

"قبل الدخول إلى حديقة التجارب الجميلة، شربنا القهوة، بالطبع في الهواء الطلق، في القهوة الموريسكية، تسمية تخفي خلفها كثيرًا من التاريخ. القهوة مُعدّة بشكل ممتاز على كل حال، كنّا نجلس على مقاعد صلبة ومريحة، على طاولة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

خشبية، جلسة قاعدية ولكنها لا تخلو من دائرة للمتعة تكمل الشمس استدارتها، كان هنالك عشرات المغاربة العمال والعابرين وكذا من باعة مشروب الليمون والبرتقال،.. بعض الطاولات عليه رقعات لِلُعِب مختلفة. لاعبو الورق كثيرون. الحال بائسة جدًا. يمكنك أن تنشئ نَفذجَة اجتماعية كاملة من الملابس. بعضهم كانوا يرتدون ما يشبه البلوزات، والتي كانت من الصوف، قطعة واحدة بيضاء، غالبًا ما تكون بالية وخشنة، الجميل أن هذا الوضع لا يؤدي لديهم بالضرورة إلى الثورة، ففي نظر المسلم الحقيقي مثل هذه الحالات الطارئة تُعدُّ امتحاناتٍ لا بد من الصبر عليها. الحظ أو الحظ السيئ، لا يمكنه أن يميز بين أبناء محمد. كل هذه الأوضاع طوارئ لا تؤثر على المساواة المطلقة التي تظهر في علاقاتهم الاجتماعية. وهم يتعايشون مع العدوان المسلط عليهم، ولو أنهم هنا يخضعون لردود فعل متفاوتة حسب درجة القهر المسلط عليهم. هنا بالذات، وفي هذه الحالة تحديدًا، يبدو أنهم يصبحون مدركين لهذه الاختلافات المكبوتة التي تكمن بينهم على المستوى الاجتماعي. ووقود ذلك في نهاية الأمر هو الكراهية تجاه المسيحيين الغاصبين، ويبقى الأمل كل الأمل في النهاية كامنًا في الانتصار على الكفّار. الشيء الوحيد الذي يشجعهم على الحفاظ على الحياة مهما كان شكلها وعدم التخلّي عنها.

استوقفتني كثيرًا الحالة الجزائرية التي تبدو مقدّمة للثورة بدون حركة ثورية. والغالب أن هذه الحالة تملك مكانها في نمذجة مختلفة عما تم رصده عندنا. ستقول لي إننا في كُتُبنا، سواء منها ما كتبناه معًا أم ما دبّجه كُلٌّ منّا على حِدَة، رصدنا كثيرًا من حالات الصراع الطبقي وحتى الثورة التي حدثت خارج أوروبا وخارج أميركا التي تبدو دائمًا كامتداد بتنويعات خفيفة لما حدث ويحدث عندنا في أوروبا، وأقصد مما رصدناه حركات اجتماعية على خلفية اقتصادية وذات تبعات سياسية كتلك التي كانت في الهند وإفريقيا الجنوبية، والصين خاصة وفي أميركا اللاتينية، وكلها بلدان تم وصفها بتفصيلٍ يكفي للدراسة لاستنباط النماذج الكافية. وستقول لي إننا عكفنا مُطوّلًا على حالة الأمير عبد القادر الذي قاد ثورة تامّة الملامح، تكفي وحدها لرسم ملامح ثورة لا تشبه غيرها، إلا بعد تمحُّل كبير نقوم به نحن لكي نُفْلسِف الثورة فنعطيها طبيعةً ثانيةً غير طبيعتها، وهنا سنكون على حقٍّ في ظل ما نكون على باطل.. ستقول لي كل هذا ولكنني سأقول لك إنها حالة فريدة تحتاج مني عُمرًا لم يعُد المرض يمنحني إيّاه كي أكتب عن

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

خصوصيات البروليتاريا الجزائرية.

أبقى مستغربًا من عدم اندلاع ثورة عارمة في هذه البلاد.

روى لي فيرمي بأنه كان شاهدًا طيلة فترة عمله كقاضٍ على حالات رهيبة من وقائع عمل رجال الأمن والشرطة خاصة، إذ كانوا يستعملون طُرقًا رهيبة للحصول على المعلومات من السجناء والمشتبه في أمرهم من العرب خاصة.. وهذا أمر قد مَرَّ بي على أيدي الإنجليز مع الهنود. روى لي مثلًا أنه في حالات كثيرة يحدث أن يرتكب جماعة من العرب جريمة قتل - عامةً ما تحدث على هامش سرقة بهدف الأكل - وأنه يتم القبض على المجرمين فيُحاكمون ويُطبق عليهم الحكم بالإعدام، ولكن هذا الأمر لم يَكُن كافيًا في غُرف عائلات الضحايا من الكولون، فكانوا يطالبون بقطع رؤوس عرب آخرين من غير المجرمين، ممَّن يمكن اتهامهم عن باطل بلا بيِّنة في العموم بأنهم ممن يمكنهم أن يسرقوا أو يعتدوا أو ما شابه ذلك..

أليست هذه حالة غير مسبوقة في الصراع بين السيد والعبد وفي ضبط العلاقة بينهما؟".

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أحسّ ماركس بالتعب المعتاد بسبب قلّة الحركة. كان الجوُّ في الخارج مُكفهرًا. أخرج بعض الأغراض من حقيبته بحثًا عن أوراق تذكّر أنه كان يعمل عليها، وإذا به يصطدم بمجموعة صور كان قد نسي أنه جلبها معه: صور مُنبثّة بين الأوراق بعيدًا عن ألبوم الصور الذي كان حينًا يدغدغ الذاكرة من خلال التفرُّج عليه، وحينًا يتقوّى في ساحات مرضه من خلال تثبيت ساعات الفرح والمجد السابقة.

كانت تلك الصور غير المتوقعة من الصور التي تستعيد الجزء الأكثر إصرارًا عليه منذ أن داهمه المرض وصار كثير الإصرار عليه: طفولته وشبابه الأول.

كانت الصورة من أوائل الصور في ألمانيا وفي فرنسا، فالصورة في مدينة تريف التي كانت يومها ذات ثقافة فرنسية تمامًا، رغم التراوح الكبير الذي عرفه الإقليم كله بسبب الانتماء إلى ألمانيا حينًا وإلى فرنسا حينًا آخر. كانت ألمانيا، تمامًا كفرنسا، حديثة العهد بالتصوير الفوتوغرافي، حالها في ذلك حال العالم أجمع. وكانت الصورة للحي الذي كان يسكنه. يذكر جيدًا المناسبة. كان ذلك في أعقاب حفل تخرُّج أحد الأصدقاء من أبناء وُجَهاء مدينة تريف.

عند مدخل البناية البسيطة في الحي السَّكَنِي، كان يقف رُفقةَ أقرانه. عتبة مهمة بين البيت وبين العالم الخارجي، عالم لا هو خارجي ولا هو داخلي. كان جميع أبناء الحي أصدقاء بشكلٍ ما فكان مدخل البناية نافذة أخرى أهم من النافذة الأصلية. نافذة الطابق الثاني. حيث كان يحلو له أن يتجسس على أمه أو على الخادمة، أو على إحدى أختيه تطلان على ما يحدث أمام البيت حينما يتوقف الحصان أو الأحصنة بعربة ما أمام البيت مباشرة. كانت الصورة تفضح جيدًا الخشب المقاوم للزمن لذلك الباب المُسَودَ. باب يتعاون عليه الطلاءالأذكَن والغبار الذي صار يميز المدينة برُمَّتها منذ سنوات خلت. باب يشبه باب غرفة في البيت أكثر من شبهه ببوابة بيت من بيوت الزمن القديم، حسب تعبير أمه المتكرر مِرارًا.

كان يحب وصف البوابات في الحكايات والقصص التي يقرؤها، يعود على مَرّ السنوات بمفعول قوي فيه مزيج من الحنين والحزن على شيء ما غامض لا يعرفه. كان يفسر الإفراط في الحنين بالمثالية الألمانية التي حاربها طيلة حياته، ويفسرها بالرومانسية التي تسرَّبت من بلاده ومن سويسرا إلى الألزاس: بلاد يعرفها جيدًا ويحب طبيعتها كثيرًا: "أفضل مقاطعات فرنسا على الإطلاق".

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كثرت عليه أمواج الذكريات منذ بدأت موجات المرض هجومها على عائلته. بِنته الأولى التي ماتت. عمّته وأخوه اللذان أخذهما "داء الاختفاء" كما كان العجائز يسمون التهاب الجنبة تحديدًا، والتهابات الصدر وأمراض الجهاز التنفسي عمومًا.

"قديمًا كان الجرمان يعدُّونها تعويذاتٍ من سحرٍ شماليٍّ ما".

هكذا كانت أمه تقول قديمًا دون أن تنجح في إخفاء تصديقها إلى حَدٍّ بعيد لما كان الجرمان يصدقونه.

"ولكننا نحن نعلم أنه آتٍ ككل مرض من الرَّبّ. وهو مذكور في العهد القديم. أليس هو مرض إشعيا النبي؟"

كانت أمه تجتهد دون نجاح أيضًا في تبيان حبها للميراث اليهودي الذي كان كاري - كما كانت الخادمة السمراء تناديه - فيما هو يسميها الفارسية، في إشارةٍ إلى الشَّبَه المفترَض بينها وبين زوجة الإسكندر المقدوني الفارسية السمراء، التي ستُوحِّد الشرق والغرب في بيت المقدوني وسلالتهما، فتقلب التاريخ رأسًا على عَقِب.

تأمل كاري صورة الباب التي أثارت عميق الذكريات، وجال ذهنه المتعوِّد على التجوال باحثًا عن بوابات لندن الكثيرة التي عبرها في حياته. بوابات كانت قد كفَّت عن أن تحجب سحرًا لم يَكُن يجده في سنواته الموالية بصخبها وتسارعها وضياع الحَواسّ فيها لكثرة ما يحدث، سنواته التي أهم ما فيها أنها أقلُّ وهجًا وعسلًا مما كان يستشعره في صِغَره. "حَذَارِ حبيبي، الحنين صديق خائن لا يريد بك خيرًا دائمًا". فجأة مَرَّ بذهنه جيش من أناسٍ رآهم يعبرون المصعد الخشبي والعتبة اللمَّاعة. أناس بحقائب جلدية وربطات عنق وعساكر بزِيٍّ رسمي، أناس جادُّون لا يبتسمون إلا في غرفة التدخين، غرفة السيغار والبراندي التي كانت ممنوعة على النساء، سيدات وخادمات.

كان ينظر فكان يغامر في المجاهيل الموجودة خلف العمارة أو وراء العمارة المجاورة. ولكنه ينظر أكثر فاركًا عينيه فلا يجد إلا سوادًا لا يقول شيئًا.

إلى أين ذهب الذين أحبهم جميعًا؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

استيقظ على حوافُ منتصف الليل كعادته. ينام باكرًا بعد العشاء، ثم يستيقظ بعد منتصف الليل لتبدأ ليليّاته التي لا تنتهي.

ليليّات بدأها قديمًا الولع بالتفكير والكتابة، ويحافظ عليها المرض بإيقاعه العاتي.

"القرارات المهمة تحدث ليلًا. والحب يكتمل ليلًا. الليل يرفع الكُلفة عن العالم، يسوّي بين الموجودات كلها، فتظهر الحقائق"، صوت جيني داخله حاضر دائمًا وأبدًا.

ترك غرفته وقصد البهو. كان المكان فارغًا.

بعد دقائق من الاستماع إلى سياط الريح وهي تجلد النافذة جاء السيد شوز.

- النوم صعب جدًا على مَن فقدوا الأوهام من أمثالنا.

ابتسم ماركس معجبًا بالملاحظة.

- تتكلم مثل الكُتاب لا مثل البحّار الدموي الذي تصف نفسك بأنك هو.

منذ سنوات طويلة لا أفعل شيئًا سوى التأمل في العشرين سنة التي مرت. حياة العسكريَّة البَحريَّة لا ترحم أبدًا. تظل منعزلًا لشهور طويلة في البحر.. يقول لك الجميع إن من يعاشر البحر يكتسب الحكمة. ولكن الحقيقة هي أن كثرة الانعزال في البحر لا تؤدي إلا إلى الجنون والوساوس.. والرجل إذا تكاثرت من حوله الوساوس لم يُفِده إلا أن يظل يتحدث باستمرار إلى نفسه، يشرح أو يعتذر أو يبرر، فإذا بلغ الواحد منًا هذا المبلغ صار واحدًا من اثنين: إما مجنونًا أو كاتبًا.

نظر إليه ماركس باهتمام أكبر.

- كلامك جميل جدًا مسيو شوز.

- تستطيع مناداتي ماكس يا مسيو ماركس. ماكس تقليص لذيذ لاسمي القديم الثقيل.

- ماكسيميليان. يا له من عبءٍ ثقيل!

- ليس اسمي هو العبء الوحيد. البحر أيضًا من تركات عائلتي.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

صمت ماركس. فكّر في أن يقول له إنه واجه الوضعيّة نفسها ولكنه أحدث القطيعة مع التّلْمود، ثم مع كليّة الحقوق وأخيرًا مع السلالات الجشعة الأنانية للمُلاك. لم يَكُن يستطيع قول ذلك. اكتفى بالجمل الخفيفة على القلب والخمر والليل:

- نحن نفعل ما نستطيعه في الحياة.

- ليست حالي - رمى السيد شوز.. شخصيًا فعلت أكثر مما أُطيقه بكثير.

صمت ماركس.

ساد صمت طويل احتار ماركس، هل يقول شيئًا أم ينتظر مُحدّثه المعذّب كي يُفضي أكثر بما يُثقل عليه.

مرّت الخادمة روزا بخُطى خفيفة. "هل سيّداي بحاجة إلى أي شيء؟"

رمى شوز دون تردد: "بحاجة إلى النوم وترك هذا الرجل الفاضل ينام. أليس كذلك مسيو ماركس؟"

- بلَى سيّدي. ليلة طيبة. سأصعد بعد قليل.

شعر ماركس بأن في نظرة الخادمة أكثرَ مِنْ مجرد السؤال عن حاجاته.

- تعالَي هنا بُنيّتي.. ما وراءك؟

- الشيخ الأكبر. القيّم على الجماعة. الذي طلبت لقاءه. إنه يريد ترتيب لقاء مع سيادتك.

لم يَكُن قد سمعها من قبل بشكلٍ ناصع. كان كل ما سمعه من قبل هو همس أو غمغمة غامضة. كان صوتها جميلًا جدًا، واستغرب أن تكون فرنسيّتها سليمة رغم الطابَع العام للفرنسية على شفاه الأهالي. الميل الكبير بحرف E صوبَ حرف الواو. والنطق المنهجي لحرف P على أنه حرف الباء.

- لماذا؟

- لم يخبرني. قال لي إنه أمر مهم جدًا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لم يفكر ماركس كثيرًا.

- قولي له إنني موافق. فليَختَر الوقت الذي يروقه للقاء. أنا هنا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بعد يومين من الصمت الاعتيادي، أخبرت صافية ماركس بأن الشيخ يريد مقابلته في حديقة التجارب بعد يومين إن سمح برنامجه. كان الاتفاق أن يوافق ماركس وأن يخبرها كي توصل الخبر إلى صاحبها.

صادفَ أن يكون الجو بعد يومين باردًا مُكفهِرًا دون مطر، الشيء الذي سمح له أن ينتقل ببساطة إلى حديقة التجارب التي لم تَكُن على أبعد من نصف ساعة إلى غاية ساعة إلا رُبعًا سيرًا على الأقدام من الفندق. كانت حديقة التجارب المكان الأكثر جمالًا في الجزائر حسبما دوَّنه في رسالةٍ إلى صهره لافارغ المهتم دائمًا بالتجوُّل والمناظر. La vie eSt une queStion de paysage et de villégiature جملة كان قد كررها الصِّهر النَّشِط ذو الخيال الواسع عشرات المرات.

كان الاتفاق يقتضي أن يتصل الشيخ به هو نفسه، وما كان على ماركس إلا أن ينتظر أمام البحيرة الصغيرة عند مدخل الحديقة.

لم يَطُل الأمر كثيرًا حتى اقترب شيخ بعمامة كان يبدو وكأنه خارج من كُتّاب عربي قديم. كان نظيف الملبس حسن الهيئة. لِحيَة يغلُب عليها البياض. جلس إلى جواره على الكرسيّ الخشبي المقابل لحوض الأسماك.

- بونجور مسيو ماركس. شالوم.

استغرب ماركس التحية.

- صباح الخير سيدي. أما شالوم فهي أقرب إلى عالَمك منها إلى عالمَي. أنا لا دينيّ، غنوصيُّ الفِكْر، مُلْحِد السلوك والثقافة، وزوجتي بروتستانتيَّة، لها انتقادات للمسيحية أكثر مما لها من ولاء للأحكام. الباقي كله نصوص وثقافة.

- متشرف جدًا بهذا اللقاء. وأنا متأسف جدًا لهذا الديكور الغريب الذي يلفُّ اللقاء. الحالة غير آمنة تمامًا لهذا أحاول التخفِّي.

أومأ ماركس برأسه الغارق وسط اللِّحيَة والأسئلة معربًا عن أنه لا يجد في الأمر كله حرَجًا.

- مَن يبدأ؟ هل تريد التفضُّل سيدي؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

شعر ماركس بحرارة الأيام القديمة تَذرعُه بسرعة:

- لي كثير من الأسئلة. ولا أدري إلى أي درجة تستطيع الإجابة. المهم أنني سأطرح ألف سؤال منها ما هو مزعج بالتأكيد، وعليك أن توقفني حينما أتجاوز الحدود التي قد تزعجك. أك؟.. سؤالي الأول هو هذا: كيف ظهر الإطار التنظيمي لحركتكم؟

لم يظهر على وجه الشيخ أي تعبير، الشيء الذي أقلق ماركس المتعوّد على بريق الثوريين كما كان يسميه. بريق خاص ينبع من عيون الرجال المشغولين عن عَنَت الحاضر بشكل المستقبل الجميل الذي يريدون تشكيله.

- حركتنا ليست حركة بالمعنى المعتاد. هي حساسية ثقافية تعبر أرواحًا متعودة على التعامل مع القيم النبيلة التي درجت الإنسانية للأسف الشديد على حبسها داخل كتب تُقدّسها، وتُعلي من شأنها، لكي تمارس خارجها أشياء فظيعة، تحت راية الضرورة المرحلية. أما ما جمعنا فهو هذا الشعور بأن في الأمر خللًا.

راقَ الكلام كثيرًا لماركس الذي كان يخشى لقاء رجل لا يجيد الفرنسية، فإذا به يلاقي بليغًا فصيحًا يتكلم بذكاءٍ كبير.

- ألم يَخترقْكُم جنودُ الحاكم؟

- فعلوا مِرارًا. ولكننا كثيرون. الجزائر ليست جنودًا ومُعمّرين فقط. طبقتنا تحديدًا كثيرة العدد، ولولا قانون الخبيث كريميو الذي أدى إلى خلق هوّة عند كثير من الجزائريين لكنّا اليوم أقوى بكثير. تجنيس اليهود جعلهم قسمين: قسمًا صغيرًا واصَل عمله معنا، واقترابه منّا، وجزءًا كبيرًا انسحب مختارًا هدوءَ الحياة في ظل التجنيس.

- أعلم أنه كان كارثة كبيرة على نسيج العمال في الجزائر.

- تقصد النسيج الاجتماعي كله.

- فعلًا.. عفوًا.. هي هفوة العادة فقط.

شعر ماركس بالحرَج بسبب هفوة العمال ولكن مُحدّثه واصل بلا توقف مُبديًا الشعور بأنه لم يلتفت إلى الهفوة أصلًا:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- ما يحدث هو أنه كلما ضايقوا واحدًا منّا انسحب أو أُبعد ليعوّضه عشرة آخرون.

كان التعبير على وجهه يوحي بتعب معين وهو يقول هذا الكلام. بدا لماركس أنه يحمل همومًا تختفي خلف كلامه أكثر بكثير مما يُبديه كلامه.

- هل أنتم مُضطهَدون اليوم؟

- جدًا.. الحاكم لا يتركنا نتنفس.

- لم تخبرني عن أهم أعمالكم.

تنهّد الشيخ تنهيدةً طويلةً ثم قال:

- بدأ عملنا الفعلي المنظم منذ ربع قرن أو أكثر.. أما عملنا في المطلق وبعيدًا عن الأُطر التنظيمية فهو أقدم من ذلك.. ومُنشئ الحركة الحقيقي هو إداري مُتوفًى وفاةً طبيعية يُسمى جورج پوتي.. رجل مثقف بشكل خرافي وحالم بعالم مختلف.. أعتقده كان من البلانكيين أيام الثورات الفرنسية المتتالية حدث له شيء بسيط غيّر حياته جذريًا.

أثار أسلوب التشويق ماركس رغم أنه شهده آلاف المرات. للحظاتٍ شرد ذهنه مع اسم بلانكي، الذي لم يسمعه منذ مدة طويلة. بلانكي السجين.. صاحب المقالات النارية والمحاكمات التي كان يتتبع أحداثها القاصي والداني من نهر الرّاين إلى نهر الثايمز.. "كَم كان حاضرًا وكم صار غائبًا العظيم أوغيست بلانكي هذا!" تذكّر النقاشات الكثيرة التي خاضها مع البلانكيين الفوضويين ومع الفوضويين غير المتطرفين من أتباع برودون.. كانت أيامًا رائعة انتهت إلى ابتلاع كل الحركات الثورية وكل حركات المطالب الاجتماعية تحت راية الرخاء الذي تضمنه المستعمرات.. ولكنه عاد بسرعة إلى محدثه، ولم يشعر بنفسه إلا وهو يقول بطريقة طفولية:

- ماذا حدث له؟

لعب الشيخ اللعبة بشكلٍ كُلّي فتوقف قليلًا، ونظر يمينًا وشمالًا قبل أن يواصل بصوتٍ خافتٍ شيئًا ما:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- ما حدث يا مسيو ماركس هو أن السيد پوتي سمع حديثًا من حارس جزائري في مصلحة الغابات، روى له قصة غريبة مَفادُها أنه كان مرافقًا لبعض العلماء كما يسميهم.. علماء آثار كما فهم هو لاحقًا.. والظاهر أنهم علماء كانوا مكلفين بمهمة غريبة جدًا عاينها الحارس البسيط الذي لم يَكُن بسيطًا إلى هذه الدرجة في الحقيقة.. كان يلاحظ أنهم يذهبون إلى المدن ذات التاريخ الروماني، ويقصدون زيارة المقابر والمعابد والكنائس القديمة ومختلف الآثار العتيقة، ويذهبون تحديدًا إلى ما تم نقشه على الصخور كنصوص تعريفية وملاحظات تاريخية ومحطات معرفية من هذا القَبيل، ثم يخربونه تمامًا بأدواتهم التي يُفترض أنها للبحث والتنقيب. لاحظَ ذلك الحارسُ الأمر يتكرر، وتغابى مِرارًا لكي يتأكد مما يفعلونه. وحدث له أن كان برفقة أحد هؤلاء العلماء الذين يدّعون العمل في ميدان علم الآثار، بدا له أنه يستلطفه ويُكثر توجيه الحديث له، فسأله عما يفعله وهو يعالج نقيشة بإزميل صغير ماحيًا النقش اللاتيني الذي كان على الجدار، فأجابه العالم بلهجة واثقة:

- هذا كلام فيه كفرٌ لا يرضاه اللّه.. علينا أن نمحو هذا الكلام لكي تدخل الملائكة المكان.

فهم الرجل مباشرةً أن العالم يستغبيه، وعنّت له ردّة فعل سريعة فقال:

- هل يمكنك إن سمحت أن تترجم لي ما كان مكتوبًا هنا؟

لم يُعجِبه الرجل طبعًا، ويبدو أنه قد كتب تقريرًا حول المرشد لأنه أوقِف من العمل بعد مدة قليلة. المرشد في الحقيقة هو شاعر شعبي كبير في منطقته: مداوروش. أو مادورنسيس. بلاد الفيلسوف أبوليوس. وقد كتب قصيدة تداولها الناس أدت إلى الحكم عليه بالإعدام.. تُسمّى ملزومة السالمي.

- قصيدة؟ لماذا؟ ماذا قال فيها؟

- سأحاول ترجمة بعض معانيها. أشياء من قَبيل: قد تمحون الكلام لكنكم لن تمحوا آثار صمتنا. وصمتنا يا سادتي يقول كل شيء.. قد تغيرون المواقع على الخريطة ولكننا سنسترجعها حينما ننام، ربما تتلاعبون بالألوان، ولا تعرفون بأننا مصابون بعمَى الألوان وأننا تعودنا أن نضع ألواننا بريشة الخيال. وحده الخيال الذي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

في حكايات الجدّات لن تحتلُّوه أبدًا، لأنكم فيه عرائس يتفرج عليها الزمن ضاحكًا أيها السادة، وقد تنبشون القبور كلها ولكن أسلافنا يسكنون الخافية، ويُعرِّشون في عاداتنا وكلامنا، ويتكلمون إلينا حينما نباشر أعمالنا اليومية.. إن معاولكم لا تحرث إلا الهباء يا سادة الحديد والنار، لهذا تجدون أنفسكم سادة للهباء... إلخ إلخ.. أشياء من هذا القبيل.. أتمنى أن أكون قد ترجمت بعض معانيها المركزية بشكل جيد.

- فهمت جيدًا لماذا قتلوه. هذا الرجل له عقل ولسان قد يطيحان بالإمبراطورية كلها.

- فعلًا.. دعني أواصل لك الحكاية. الوقت ليس في صالحنا يا سيدي الجليل. وما حدث هو أن السيد پوتي قد التقى بهذا الشاعر المدعو سي أحمد بن الطاهر السالمي، لأنه كان يعمل في تلك المنطقة أيضًا وأعطاه كل التفاصيل.

- يا لها من قصة عجيبة. هذا الأمر لم أسمع به من قبل قطّ، رغم تتبُّعي لكل كبيرة وصغيرة. أعلم أن الإدارة لها مُشكِل مع لغة الأهالي ولكن الأمر في ذهني مرتبط بالتعليم وليس بشيءٍ آخر.

- التعليم عندنا جمع كل التناقضات الممكنة. تعلم جيدًا مسيو ماركس أن الإدارة تكاد لا تعرف ما الذي تريد فعله مما يمكنها فعله. يقولون: إذا علَّمناهم استفاق وعيهم. وإن حرمناهم من التعليم سقطت حجة المجيء إلى هنا. يمكنك أن تتابع نصوص رجال من أمثال جول فيري لكي ترى الكَمَّ الكبيَر من التخبُّط الذي هو واقع فيه.

- بلغني أنه يحضر مُذكِّرة يريد أن يقترحها على البرلمان فيها دعوة إلى مجّانية التعليم.. تبدو مهمة صعبة جدًا. في كتب التاريخ، سيكون آنذاك أهمَّ منّا نحن الاشتراكيين جميعًا.

ابتسم الشيخ أخيرًا.

- هكذا هي حال الأفكار العظيمة يستولي عليها الأشرار الذين يطبل لهم التاريخ.

- نعم.. العزاء الوحيد هو علمك بأن حلمك قد تحقّق. تحقق بعد موتك وبشكلٍ لم تتوقعه أصلًا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- يا لها من متعة بائسة!

أطرق ماركس قليلًا قبل أن يعيد مُحدّثه الملتحي مثله إلى خرفانه:

- فلنَعُد إلى ما كنّا فيه. أكمل لي حكاية جورج پوتي.

- تزوج السيد پوتي البنت الصغرى للسالمي التي اعتنقت المسيحية، وانتقل إلى قُسَنطينَة، ثم عاد إلى فرنسا بسبب ظروفه الصحية، ولم يجد تعقيدًا كي يُجنّس زوجته المادورية الجميلة، الواقع أنه كان من عائلة ثَريّة تعمل في ميدان صناعة الأبسنت في پونطارليي، قبل أن يعود مرةً أخرى إلى الجزائر العاصمة كمُدرّس مرة أخرى. يبدو أن هذا الرجل قد سكنته الجزائر وصارت تسري له في العروق.

سأل ماركس متعجلًا الوصول إلى صلب الموضوع:

- والحركة؟ حركة الأساسيين؟

- نعم.. أنا واصل إلى هذه النقطة.. الحاصل أنه قرر مع بعض الزملاء في المدرسة الإكمالية للمصطفى أن يشكلوا جمعية سِرّيّة سموها أول مرة "معًا لأجل حفظ الذاكرة"، هدفها جمع الوثائق القديمة لتشكيل مُتحَف يبدأ كمجموعة آثار شخصية، ثم يتحول إلى متحف تاريخي سري للمحافظة على الذاكرة التي تأكّد پوتي أن الإدارة المحلية تعمل على محوها.

- نعم.. ماذا كانوا يفعلون؟ ما يهمني هو تنظيمهم.. منذ أربعين عامًا أحاول رسم خرائط للتنظيمات من خلال رصد طرائق العمل.. أنا مؤمن بأن التاريخ هو أفعال.

قاطعه الشيخ الأنيق:

- قرأت لك ذلك وبقي في ذهني.. هذه واحدة من أفكارك الأكثر تعلُّقًا بذهني مسيو ماركس: الإنسان هو الذي يصنع التاريخ، قد لا يكون التاريخ خارجًا عن غائيّة قويّة وعن السير صوب نقطة معظم أجزائها مُحدّد سلفًا، إلا أن أفعال الرجال، الصادرة عن ظرفهم الاجتماعي الذي هو حبيس ظرفهم الاقتصادي، هي التي تشكّل طاقة موضوعية لتحريك التاريخ. مادية في صلب المثالية. ستتعجب ربما ولكنني شخصيًا أفكر هكذا بسند ديني. في القرآن كما قد تعلم ما يكفي من نصوص لتقديم أفعال الناس الحرة القوية الفاعلة في التاريخ والراسمة للمصير..

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ابتسم ماركس محركًا رأسه، معربًا عن الإعجاب من دقة الاستحضار وجودة الصياغة. قال مدققًا:

- للأسف انا لم أعكف أبدًا على دراسة القرآن. اقتنيت منذ سنوات طويلة ترجمة المسيو غالان لأجل بعض حاجات تحرير كتابي حول المسألة اليهودية ولكنني اكتفيت، فيما احتجت إليه، ببعض مقالات المجلة الشرقية في ألمانيا. أعترف بجهلي في هذه المسألة.

لبرهةٍ داهمته الرغبة في التعليق على ما قاله مُحدثه من أجل تقويم نقطة ما. يتذكّر دومًا التفاصيل التي تملؤه حينًا بالحياة وحينًا بالقنوط، ودومًا يفكر في العودة على بعض النقاط لتدقيق كلام الآخرين حوله. كلام يتكاثر باستمرار وتتكاثر أخطاؤه. وراودته فكرة فيما صاحبُه يستعيد أنفاسه أو يرتب ما يريد الحديث عنه، "ماذا لو يأتي عليّ زمن بعيد في المستقبل تتغلب التصورات الخاطئة حول ما كتبته فتصبح أفكاري مجهولة تمامًا؟" أرعبته الفكرة، ولكنه كان يفضّل التركيز مع الشيخ. أومأ إليه بيده اليمنى لكي يواصل.

- كانوا يجمعون الكتب العربية والمخطوطات، يشترون القطع الأثرية بالمال الذي كان پوتي يُبدع في إيجاده لأجل المهمة النبيلة، جُلُها من فرنسا ومن جيوب أهاليه في بونطارليي، كانوا يكلفون مترجمين يعملون سِرًا على نقل بعض الكتب التي تتحدث عن أصول مختلف القبائل، عن البطون الجزائرية، الأصول والفروع، كما كانوا يتصلون بكثيرٍ من الرحّالة لكي يسيّروا رحلاتهم ويعيدون توجيهها، فيجعلونهم شهودًا غير مباشرين على مناطق معينة حيث عادات مهمة، حيث مؤشرات اجتماعية خاصة، كثير من الرحالة المهمين الذين كتبوا حول مشاهداتهم في الجزائر في السنوات الفائتة كانت رحلاتهم مدفوعة الأجر، يعرضون على المسافر المبيت والتكفُّل بإقامته وبالمرشدين الذين يرافقونه، فيجد الرحالة المغامر نفسه يكتب حول أشياء نادرة مجهولة بلغاتٍ غير متوقعة أصلًا، والحاصل أن وراء كل ذلك عمل الأساسيين.

- هذا سلوك ثوري غريب جدًا.. هل هم من الـ..

قاطعه الشيخ

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- نعم اشتراكيون.. جُلُهم بلانكيون وبرودونيون وماركسيون طبعًا.. جُلُهم قرأ لك على الأقل المانيفستو..

- هل الحركة مهمة إلى هذا الحد؟

- الإدارة هنا عملت عملًا جبارًا لكي تضمن فقر الحياة العقلية في الجزائر. الواقع هو أن المجتمع هنا كان على درجة عالية من الثقافة، وكان متعودا على التعددية الثقافية، فمنذ أقدم الأزمنة ظهر خطٌ مسافرين بين الجرمان والجزائر بفضل الأريوسيين المُوحِدين، الذين وجدوا أرضًا خصبة لعقيدتهم المُوحدة التي كفَّرتها الكنيسة..

- نعم.. نعم.. أعلم ذلك جيدًا.. الفاندالوس. اطّلعت على كل تدوينات الألماني بوتنغر حول هذه الأشياء.

- المجتمع الجزائري هنا عايَش الإسبان، وأخذ من لغتهم وعاداتهم وطُرُقهم في اللعب والصيد والطعام، عايش الإيطاليين والأتراك والشاميين والمالطيين، ولكل هؤلاء دور في تشكيل استعدادات ثقافية يدعمها التاريخ الإغريقي اللاتيني الثَّرِيّ، لأرض عرفت القديس أوغسطين والقديس دونا والأنظمة الكنسية..

- الصحافة الفرنسية لا تتحدث عن هذا الأمر أبدًا. مِرارًا يقولون إنهم لم يجدوا أي أثر لوثائق مِلكيّة الأراضي.. هذا الأمر قرأته وسمعته مِرارًا. بل إنني كتبت عنه للموسوعة الأميركية.

- هذا غير صحيح. توجد الوثائق العثمانية. الأتراك مهتمون جدًا بهذا الجانب. وللوثائق التركية نُسَخ كثيرة جدًا بأعداد السادة المثقفين هنا. وهذا أمر رأيته بأُمّ عيني وليس خبرًا أكيدًا فحسبُ. وأستطيع أن أؤكد لك أنهم كثيرون جدًا هؤلاء الأعيان. فوراء كل تاجر كبير مدرس ومحاسب ومُسيّر أعمال يجيدون القراءة والكتابة بالعربية والتركية على الأقل. والغالب أنهم يجيدون الفارسية أيضًا، وكثير منهم يجيد لغة أوروبية على الأقل..

- لي سؤالٌ مُهمٌ جدًا.

- تفضّل مسيو ماركس. أنا هنا لإجابة كل أسئلتك.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- كيف كان الأساسيون يتجاوزون حاجز اللغة. المدرسون الذين تتحدث عنهم فرنسيون في الغالب. لا؟

- آه. نعم. في البداية كانوا يستهدفون مدرسين وإداريين مزدوجي اللغة أو عندهم معرفة ما باللغة المحلية، ثم، في مرحلة ثانية، كوّنوا مترجمين ومترجمات لهذه المهمة.

- مترجمات؟

- نعم.. بأعداد كبيرة. هنا في الجزائر كانت المسؤولة هي آمِي زوجة پوتي.. اسمُها العربي آمال واسمها الجديد الذي اتخذته في فرنسا كان إيميلي.. كانت تجيد أربع لغات كتابةً وقراءةً وكانت تكوّن هؤلاء النِسوَة الغريبات اللواتي فعلن الأعاجيب بشكلٍ ظلَّ سِريًا قرابة العشرين سنة قبل أن تُفكّك الإدارة الشبكة كلها.

انتبه ماركس إلى نقطة النهاية التي بلغها صاحبه. نظر إليه عميقًا كأنه يسأل عن المآل، وواصل الشيخ كأنه فهم السؤال الذي كان يجول في ذهن محدثه:

- تُهَم مُلفَّقة، اعتقال، أحكام قضائية غير مؤسسة، تهجير، سجن، إهمال، مرض، وغالبًا: موت من مرض. تحويل إلى مناطق نائية. تُهَم كثيرة جزافية بلا متابعة. تعلم جيدًا سيدي أن القانون في المستعمرات جُزَافي اعتباطي أكثر من أي شيء آخر. سواء أكان ذاك متعلقًا بالأهالي أم بالفرنسيين المقربين منهم.

ساد صمتٌ ثقيلٌ بين الرجلين.

أراد ماركس السؤال عمّا يقومون به اليوم إلا أن الشيخ باغته:

- سيد ماركس أنت تعلم أن شوليي في وضعٍ حَرِج. أرجو أن تستعمل حظوتك عند السيد فيرمي لمساعدته، فله كلمة مسموعة في أُذن الحاكم. لقد تسرَّع محمد المسكين جدًا، واندفع دون استشارتنا في مقالته تلك. أخشى أن..

تنهد ماركس قليلًا ثم قال:

- فيرمي محكوم بالولاء للحاكم. تاريخه في الكومونة يجعل موقعه حَرِجًا جدًا.

- لا أدري كيف سيكون رد الفعل. أعتقد أنهم قاموا بجلسة سماع وكتبوا له

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

محضرًا. أعلم أن بعض أعضاء عائلته النافذين سيشفعون له.. ولكني أخشى أن يحدث شيءٌ من الفظاعات غير المتوقَّعة التي تقوم بها الإدارة أحيانًا لإثبات قوتها وجدارتها بثقة جماعة باريس. تعلم جيدًا أنهم قد يغتالونه. لطالما كان الاغتيال سلاحهم الأكيد.

تنهَّد ماركس عميقًا ووقف لرؤيته الشيخ يستعدُّ للوقوف:

- أعدك أن أفعل كل ما بوسعي.

سلَّم الشيخ بشيءٍ من الاكفهرار ثم انسحب بلباقة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لم يهدأ لماركس بالٌ طوال الأمسية.

استبدّت به فكرة أن الخراب الذي أحدثه التفكير السياسي المشبّع بخوذات العساكر كان يمكنه أن يفضي إلى حالة أخرى.

ظلّ يُقلّب في ذهنه المُتعَب فكرة التفكير خارج الإمكانات الحالية، وهل يمكنه أن يعطي إمكانات أخرى؟

كثيرًا ما دخل في نقاشات حول الخلفية التي دافع عنها طوال حياته. الحتمية الفكرية للوضع المادي. الإنسان يفكر في الإطار الذي تتيحه الطبقة التي ينتمي إليها.

استبدّ به السؤال الذي يرافقه منذ مدة:

"ماذا لو أكون على خطأ؟

جدّيًا يا ماركس: ماذا لو أنك على خطأ؟

هل عليّ أن أعتذر اعتذارًا بحجم التاريخ والكرة الأرضية جمعاء؟

استبدّت به فكرةُ أن الجماعة التي ظلّ يجمع حولها معلوماتٍ قد خرجت تمامًا من أُطر طبقتها. پوتي تحديدًا سيُسقط كل نظرية صُغتها أنا أو صاغها من قبل هيغل. والأذهَى والأمرُّ هو أن هيغل سيكون أقرب إلى الصواب مني. يا للهول!

كان ينتقل من فكرةٍ إلى أخرى بسرعةٍ لا تسمح له باستخلاص أية فكرة واضحة.

شعر بأن البلاد البائسة البلهاء التي جاءها مريضًا بصدد قلب حساباته كلها. كل ما يحدث على بساطته، وتفاهة كثير منه، يخرج من دفتر غير متوقع تمامًا.

"مسرحية غريبة، مؤلفها مصاب بالجنون وممثلوها عميٌ. وأنا، المتفرج الوحيد على المسرحية، لا أفهم لغتها".

هروبًا من أشياء غريبة بدت له مُشوَّشة جدًا، لجأ إلى كراسة جيني. تشجّع لأنه في آخر مرة لم يبكِ إثر قراءة الكراسة، وسماع صوت حبيبته جيني يأتيه من العالم الآخر ناصعًا.

تُراه تعوّد على موت جيني؟ أم أنه استأنس بصوتها الآتي عبر الكراسة؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

"... قرأت مُؤخّرًا ما كنت قد كتبته حول الجزائر في الموسوعة.

هنالك ملاحظة استوقفتني: كل معلوماتك كانت مأخوذةً من رجال يدعمون الاستعمار.

هل تتوقّع من رجالٍ كهؤلاء أن يقولوا الحقيقة كاملة؟

راودتني عدة أفكار وأنا أقرأ مقالك ذاك، ثم وأنا أتذكّر الجدل الواسع الذي أحاط بشخصية الأمير عبد القادر الجزائري الذي قلت مِرارًا بأنه أحد شروط نجاح الثورات. أرستقراطي بلباس ابن الشعب. يستطيع التضحية بأية أبّهة لفائدة ما يؤمن به.

العالم يصنعه المؤمنون. كنت تكره هذه الجملة، وكنت دومًا تقول إن لاصال رجل وسخ متنكّر لمبادئه، لذا فقد كان عليه ألّا يقول جملة جميلة كهذه.

لا حبيبي. لاصال ليس رجلًا وسخًا. ولا طوكفيل. ولا پرودون.

هم أبناء التاريخ. والتاريخ مثلما ينبني على الصواب فهو ينبنى أيضًا على الخطأ. على الأخطاء الكبيرة الخطيرة الكثيرة.

أذكر جيدًا تلك الرسالة التي كتبها إليك أبوك. قال لك إن لك علاقةً إشكاليّة مع المال.

قد يكون ما كتبه الفقيد أبوك هو أصل كتابك البديع الذي أؤكّد لك للمرة الألف بأنه ستكون له مكانة عظيمة في المستقبل.

التاريخ ليس درسًا في الأخلاق.

غيزو الذي تكرهه يراه كثيرٌ من الناس أداة مهمة من أدوات التطور في أوروبا. السيد غاسطون فيلان قال عنه بأنه لولا رجال مثل غيزو لظلّت فرنسا دون إنجلترا وألمانيا، ولاكتفت بأن تكون مُثخمًا، كحال إيطاليا، رائقًا وبائسًا وجميلًا وصامتًا، يصلح للفرجة فقط.

التاريخ وجهات نظر.

التاريخ أخطاء وتصحيحات قد توقع في أخطاء أكبر من الأولى.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أعتقد وأنا الضليعة في علم الاجتماع بأن الظواهر الإنسانية مستعصية على جنون النَّمذَجة الذي أصاب هذا العالم الذي نحن فيه منذ سنوات ليست بالكثيرة.

قد لا ينجح العلم المادي الرياضي المولع بالحسابات والأرقام والأحجام ودراسة الفروق الظاهرة في مَهمَّة فهم جميع الظواهر. كلود برنار قد يفهم كل شيء في الخلايا، ولكنه لن يفهم أبدًا أين يقع الخلل الذي يجعل الرجل يقول الكلام وعكسه.

كيف يدافع رجل عالي الهمَّة مثل طوكفيل عن الديمقراطية، ثم يأتي بعد ذلك ليصوّت لصالح قرارات استعمار الجزائر التي ستؤدي إلى سرقة أراضي القبائل هناك، مع علمه اليقيني بأن ذلك سيؤدي إلى ثورات شعبية لا مهرَب منها. وسينتج عن ذلك قمع وتقتيل تصل الحكومة وقُبَّة البرلمان تقارير دقيقة عنه، ثم يقبلها العقل العظيم لطوكفيل والعقل الرومانسيّ عالميّ الحساسية إنسانيّ القيم والميول للامارتين، رجلان عظيمان أو هكذا يبدوان ولكنهما سينسيان تمامًا حق الجزائريين في التعبير عن رأيهم وفي تقرير مصيرهم على أرض جدودهم؟

هذه إشكالية كبيرة رأيتها باكرًا في بيتنا. كان أبي مولعًا بإنجلترا كما تعرف جيدًا، وكما لا بد أنك سمعت ذلك منه في ساعات النقاش التي لا نهاية لها في سنواتنا الجميلة تلك، حينما كنا جاهلين بريئين وجميلين، ولكنه كان يدعم كل ما تقوله الإدارة الامبراطورية. ومثله أخي البائس فيرديناند الذي تقلَّد مسؤولية وزير الداخلية. وزير الداخلية معناه الآمِر الأول بالتعذيب والقهر والتدابير الرَّذعيَّة. ظروف عمله جعلته لاحقًا يضحي بي أنا، أخته الصغرى التي كانت كظله. أخته التي كانت تسهر الليل ترعاه من نزلات الحُمَّى الكثيرة التي كانت تحلُّ به. ولم يتوانَ عن طردنا أنت وأنا من ألمانيا تحت طائلة السجن والقتل. فقط لأن بسمارك قال كذا أو أن الرئيس الجديد قال كذا.

كل هذا لا مكان له في سوسيولوجيا السطوح التي ندرسها ونُدرِّسها لأبناء الطبقة الراقية ممَّن لا يفهمون كلمات مثل: الجوع، التضحية، الوطن، العدالة الاجتماعية، حقوق الضعفاء، الذاكرة الشعبية، الحساسية الدينية، التساوي في الفرص، حرية التعبير، حقوق المرأة، ضرورة التعليم للجميع، المبدأ الجمهوري.

لا بد من سوسيولوجيا للأعماق.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لا بد من تحرير السوسيولوجيا من الرياضيات يا حبيبي.

الحسابات تعمِي أكثر مما تُعين على الرؤية.

تعلم جيدًا أن الإحصاءات أكثر شيء يتلاعب به المسؤولون.

رأيت أمس في المنام أنني أموت في شهر ديسمبر. كنت تقول لي: "لماذا مُتّ في ديسمبر الذي أحبه. تعرفين أنه شهري المفضّل فكيف تموتين فيه؟"

أعتذر لك على ميتتي البائسة تلك في شهرك المفضل.

أعتذر وأعدك ألا أكرر ذلك.

..."

شعر بغُصّة عميقة وهو يتذكّر حديثه المكرر عن شهر ديسمبر. عن البرامج البهيجة التي تعوّدا على ترتيبها في ديسمبر، حينما يأوي الجميع إلى مخابئهم.

أخذ زجاجة العسل المضادة للسُعال، وتأمّلها مُتذكّرًا جيني: العسل إذا تقادم كثيرًا تحول إلى علقم.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

جاءه الصحفي الشاب في الموعد. التاسعة صباحا.

كان يحمل وردة حمراء راقت لماركس رؤيتها.

- شكرًا للورد. اعتقدت أن هذه العادات الأوروبية غائبة هنا.

- بالعكس سيدي. العادات الأوروبية الأكثر تطرفًا في أوروبيتها تعود بقوة حينما نبتعد عن أوروبا. يمكنني أن أعدد لك منها عشرات.

كان صوته يشي بثقة غير متماشية مع صغر سنه.

قدم نفسه:

- ترستان باربار.

- اسفك باربار. نحتاجك هنا في الجزائر كثيرًا.

على عكس المتوقع لم يبتسم الصحفي إلا ابتسامة خافتة بينت لماركس أنه لم يفهم الدعابة جيدًا حول معنى الاسم باربار وأنه "حاجز".. بعد لحظاتٍ من فراغٍ ما، قال الصحفي بلا مقدمات:

- الاستعمار ليس حاجزًا. أو هو حاجز نفسي فقط. كل واحد يعيه بطريقته.

شعر ماركس بعدوانية الجملة. قال بصوته المحارب:

- عليك أن تسأل الناس رأيهم فيمن يجلدهم جلدًا اعتباطيًا ثم يحدث أبناءهم عن عظمة أشباه أبطال من أمثال فيرسانجيطوريكس وعن حسنات الثورة الفرنسية.

أشاح الصحفي بناظريه.

- هل نبدأ الحوار؟

انزعج ماركس من سؤال الصحفي الذي بدا له كأنه يسارع إلى إنهاء مَهمَّة ثقيلة على قلبه. فكّر للحظةٍ في إلغاء الحوار وقول ما في قلبه لهذا الفتى المغرور الذي تعدّى كل حاجز عدا حاجز اسمه: اذهب إلى الجحيم! ولكنه خشي أن يسبب ذلك حرجًا لفيرمي الذي يبدو مستميتًا في خدمته والسهر على راحته وتماثله إلى

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الشفاء.

- نبدأ نعم. أنا متعب ولا أستطيع المكوث معك طويلًا.

- كما يريد سيدي.

- السؤال الأول سيكون: هل كنت ستعيد التجربة نفسها لو أنك تمكّنت من العبور مرةً ثانية؟

- يا له من سؤال!.. أعتقد أنني لم أشعر يومًا بالندم على شيء. وإن كان لي أن أندم على شيء أو اثنين فإنهما سيكونان غير قابلَين للندم عليهما: الأول هو أصولي البرجوازية التي لا حيلةَ لي فيها، والثاني هو عدم توقُّعي لما يحمله قرني هذا من عنف. كل هذا الاستعداد البشري للقسوة الذي كنتُ أركّز دائمًا على أنه قضية ربح وهامش ربح وخسارة، واستعداد غير أخلاقي للاستغلال. الحقيقة هي أن هنالك هامشًا من الوحشية لم أتوقعه أو لم أنتبه إليه.

- هل هنالك فرق بين الاستغلال والقسوة؟.. أليس هذا هو ذلك؟

- ليس هذا ما أقصده. ما أقصده هو الاستعداد للقتل. القتل البربري بأقلام مثقفة، مثل أقلام مسيو لامارتين ومسيو جول فيري.

- رجال السياسة خدم لرأس المال دائمًا. أنت من قال هذا. وربما أضاف غيرك بأنهم من صناعة رأس المال وليس العكس.

- قليل من الخدم مستعد للقتل خدمة لسيده. الخادم قد يبيع كرامته لأجل المال، ولكنه لا ينتظر منه أن يمارس القتل العمدي غير عابئٍ بشيءٍ عدا خدمة سيده بأفضل الأشكال الممكنة.

- والمال؟.. ألم تكُن ستغير شيئًا في وضعك المالي؟

- هههه.. كان أبي المسكين يقول لي: لك علاقة بُرجوازية مع المال. البرجوازية في عالم المال تعني أن تنفق المال دون أن تتحدث عنه. لقد قضيتُ أجمل مراحل حياتي فقيرًا مُعدمًا وربما غارقًا في الديون. وحتى إعانات صديقي فريديريش إنغلز لي، وهو أمر فعله ذلك الرجل الذي لا حدود لكرمه ولا نظير لعظمته، فلم تكُن تسدُّ كل حاجاتي. فيما بعد علينا أن نذكر زوجتي التي هي المدبرة الأكثر قدرةً

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

على تسيير شؤوني المالية في التاريخ البشري. جيني فيستفالن ماركس. أعظم امرأة في التاريخ.

- إذن كنتَ ستغير شيئًا في هذا الأفق الشخصي وليس في الأفق الفكري؟

- هذه ملاحظة خبيثة جدًا. وأريد هنا أن أقول إن الأفق الفكري هو مُحصلة دقيقة لمجمل الآفاق الشخصية لا غير. أما ما يبدو لعقلك المحدود فلا يتجاوز غبش الرؤية لمن لا يستطيع أن يتحرك بيسر بين الفردي والجماعي؛ أي بين التجارب الفردية الذاتية وبين تجارب الآخرين منظورًا إليها من ارتفاع عالٍ، يسمح بالتجوُّل جيئةً وذهابًا بين المشاعر البسيطة والأفكار المجردة المركَّبة.

- عفوًا مسيو ماركس. لم أكن أقصد الفظاظة.

- الفلاسفة لا يعيرون الإهانات أية أهمية. الأفكار لا تقف عند المشاعر المترتبة عنها. يهمهم فقط أن تستقيم أو أن تبتعد عن الاستقامة.

- لهذا ربما يعجز الناس عن أن يتحولوا إلى فلاسفة. ولهذا يظل رجل الدين أقوى من الفيلسوف حتى في ظل ثقافة مضادة للدين كالثقافة المعاصرة. هذا القرن مجنون وخطير. وهو خطير تحديدًا لأنه واثق في جنونه.

- اطرح أسئلتك.

- اشتهرت بمقالاتك التي كانت مُضادّة للكومونة. ونُقل عنك في بعض المجالس- ولك أن تصادق على ذلك أو تُكذِّبه - بأنك قلت أنا لست ماركسيًا. أليس هذا مُربكًا لآلاف الرجال والنساء الذين يُقدّسون فكرك ويعدُّونك - في دوائر قليلة لكنها موجودة- أكبر عقل في القرن الحالي. بل وأعظم فيلسوف منذ هيغل؟

- الخطأ الكبير الذي وقع فيه هيغل كان الثقة في الدولة. والخطأ الكبير الذي وقعتُ فيه أنا هو الثقة الكبيرة في قدرة الوعي الشعبي على إحداث الثورة.

- ألا يؤمن مسيو ماركس بالثورة؟

- لا أومن بأشكالها الحالية. قرننا المنتفخ هذا عاجز عن إحداث تغيير مهم. كنت أكتب ضد برودون بأنه حالم لكن الغالب أنني أنا أيضًا حالم كبير.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- حوارك هذا لجريدتنا المُعمّر الصغير. لوپوتي كولون. دَعْنَا نتحدث قليلًا عن الإعمار.

- تقصد الاستعمار.

- هي مسألة مصطلحات. لا أعتقدنا نختلف.

- لا يتغير مصطلح في المسافة بيننا دون أن يتغير وَعيُنا بالأشياء. منذ عامين قلت إنني لست شيوعيًا بالمعنى الذي نتج عن التجارب الأخيرة للوعي الشيوعي وعلى رأسها الكومونة، فما كان من الصحفي الذي نقل كلامي إلى إنجليزيته إلا أن وصفني بالمتنكّر للشيوعية وبالرأسمالي المنتقد. فقط أنه لم يلتقط الفرق بين كلمتين استعملتهما، هما: marxiSt و marxian.. والفرق واضح بالنسبة إلى المتأمل.

- ألست منتقدًا للرأسمالية؟

- برودون كان كذلك. أنا أبيّن أن الرأسمالية لا يمكنها أن تستمر. قلت بوضوح بأنني أكبر قذيفة موجهة لتفجير الرأسمالية. كيف يمكنك أن تصفني بالرأسمالي؟

- المرحوم برودون منتقد للنظام مثلك. ما تفعله في كتابك رأس المال هو نفسه نقده للسياسة الاقتصادية. أم أنني على خطأ؟

- هنالك فرق واضح بين سياسة اقتصادية منتقدة وبين الانتقاد الكلّي للسياسة الاقتصادية في حَدّ ذاتها.

- لا أفهم جيدًا. أليس كلاهما برنامجًا ينتقد برنامجًا آخر؟

- لا.. الاتجاه الأول يؤمن بإنقاذ المنظومة من خلال الإصلاحات فينتهي إلى وضع دعامة إضافية للبناء، والثاني، الذي هو أسلوبي، مؤمن بضرورة تهديم البيت على رأس مَنْ فيه لأجل بناء شيء جديد يحمل روحًا ثورية. الثورة عندي لا تقبل بالإصلاح لأنها تؤمن بأن الأساس الذي بُني عليه البيت كله أساس فاسد لا يقبل إصلاحًا ولا ترقيعًا.

- فهمت. أنت ترى بأن البناء الكولونيالي ليس صالحًا. ولكن كل المعلقين يرون في الكولونيالية خيرًا لا ريب فيه، ويُصنّفون الكومونة وأعمال الشغب كحركات

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بسيطة لا تشكّل أي خطر على مسار التطور الرهيب لعالمنا الحديث. ألا تعتقد أنك تريد إقامة حفل عزاء لعالم بائس في دماغك وسط أناسٍ يحتفلون بميلاد عالم جديد يتفاءلون به خيرًا في أدمغتهم التي هي أكثر عددًا بكثير من دماغك مع احترام المقامات وعدم إهمال الإحصاءات؟

تذكّر ماركس شيئًا كان قد قرأه في كراسة جيني، فقال دون تعبٍ كبير:

- لا شيءَ يكذب على الحياة في عالمنا المعاصر هذا مثل الأرقام. نستطيع أن نقوّلها ما نشاء هذه الأرقام الخرقاء.

- وجهة نظر. الفلسفة دائمًا مسألة وجهة نظر.

- هل أعجبتك الجزائر؟

- لم أرَها جيدًا. الجوُّ المُكفهِرُّ لم يسمح بالتجوُّل.

- هل أعجبك ما رأيته؟

- رأيت حديقة التجارب الجميلة. هل الجزائر كلها شبيهة بحديقة التجارب؟

- سؤالك هذا سياسي يا سيدي.

- لا شيءَ خالٍ تمامًا من السياسة يا بُنيّ. هل الجزائر كلها شبيهة بحديقة التجارب؟

- قطعًا لا. مثلما أن باريس ليست كلها شبيهة بالحدائق الجديدة التي أنشأها جماعة البارون هوسمان.

- الباريسي يعمل في ظروف أفضل بكثير من ظروف الجزائري. هذه أعلمها من خلال تقارير الإدارة للبرلمان، وقد اطّلعت عليها في الصحافة القارّيّة.

- الإدارة تعمل دومًا على تحقيق الأفضل. كثير من القوانين يتم اقتراحه لتحسين ظرف الأهالي.

- أكبر ما نجحتم فيه هو قانون سلب الأراضي من أصحابها، وقانون تقسيم الجزائريين إلى يهودي صاحب حظوة ومسلم محروم من كل حظوة. الباقي مشاريع تظل عالقة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- سيقول أي سياسي وأي مسؤول بأن مسيرة قرن من التطوُّر لا بد لها أن تعدَّ في حصيلتها بعض الأخطاء. مَن لا يخطئ هو مَن لا يعمل.

- الخطأ الذي يناقض كل الأعراف المتفق عليها، بدءًا بالأعراف التي وضعها المخطئ نفسه، تُسمَّى الجريمة المُبيَّتة. وهذه يعاقب عليها القانون ولا يُدرجها في قائمة الإنجازات التاريخية.

- ألا يروقك هذا العالم الجديد مسيو ماركس؟

- عن أي عالم تتحدث أيها الصحفي الغِرّ؟ نحن في مسرحية كبيرة بحجم التاريخ البشري... كل ما في الأمر أنني، أنا، قد شاهدت نهايتها، وفقدت روح المفاجأة التي يدَّعي الغير أنهم مصابون بها.

- الساسة في القارة الكبرى لا ينامون أبدًا.. هم كل يوم في برامج ومخططات جديدة لتحسين الأوضاع. مطالب العمال الثائرين منذ 1848 وربما منذ 1830 قد تحوَّلت إلى أرضيات لبرامج سياسية شُجاعة جدًا، هذا القرن العظيم يتعلم باستمرار من أخطائه. ألا ترى أن عمال اليوم أقلُّ ثورةً من عمال الأمس بفضل ساسة اليوم الحَذِقين والسياسات التي هي أكثر انتباهًا لحالهم وأكثر استماعًا لانشغالاتهم؟

- ليس الأمر في خطيب يقنع المحرومين بالعودة إلى بيوتهم لأنهم لن يلبثوا أن يخرجوا ثانيةً وهم أشد حنقًا وضراوة.. الأمر في الواقع يتطلَّب سياسيًا حَذِقًا يفكِّر بشكلٍ ثوري مختلف لأجل ضمان عدم حاجة الناس إلى الخروج غاضبين إلى الشارع.

- ألا يوجد أي واحد منهم في المناصب المُهمَّة في القارة كلها؟

- الواقع هو مَن يُجيبك. ليس أنا.

- الواقع يقول بالهدوء والاستقرار.

- 27 حاكمًا تعاقبوا على الجزائر في نصف قرن. هل هذا ما تسميه الاستقرار والرخاء والنماء؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

نظر الصحفي اللَّبِق إلى ماركس وقال: "لا يمكننا نشر هذا الكلام".

سعل ماركس سُعالًا قويًا، ووقف راميًا لصاحبه جملة ما يشبه السقوط الختامي للستار:

- فلنتوقف هنا يا صاحبي. افعل بهذا الكلام ما تشاء. انقص ما تشاء المهم ألَّا تضيف شيئًا من عندك. أريد لكلامي أن يُنشر على حاله أو لا يُنشر. لا تحرِّف أقوالي رجاء.

وقف الصحفي كأنه انعتق من حبسٍ ما، وفي حركةٍ لَبِقَةٍ جدًا مدَّ يده مصافحًا ماركس وخاتمًا:

- أعدُك بأن يروقَك الحوار. لن أغيِّر شيئًا. أعطيك كلمة الشرف.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

جاءه فيرمي مُبكرًا في ذلك المساء.

من النظرة الأولى عرف ماركس بأنه قَلِق جدًا.

- هل تريد سؤالي عن لقائي أمس في حديقة التجارب بالشيخ المغضوب عليه أم لديك أخبار سيئة عن شوليي؟

- بل جئتك بالريدنغوت الذي ستحضر به الحفلة من اللوندري.

ابتسم ماركس ابتسامةً طفيفة. ثم واصَل مُصِرًا.

- لقد راسلت صديقك لكي يتدبَّر لي مكانًا في الكوت دازور. يبدو أن الجو هنالك أفضل من جو الجزائر هذا.. وأعلم أن ما يحدث قد يخلق لك مشاكل.

قال فيرمي:

- أسوأ ما يحدث للثوري هو أن يصبح يتصرف ضد قناعاته لأجل المحافظة على قناعاته أو على من يؤمنون بما يؤمن بهم هو ولو داخليًا.. لا أخفيك أنني يوميًا أفكر في ترك عملي هنا والذهاب إلى المارتينيك لممارسة الزراعة. تملك عائلة زوجتي هناك أرضًا جيدة وأفكر فِعليًا في الهجرة وترك كل هذا العالم خلفي.

- لو فعلنا جميعًا ما تفكر في فعله لضاعت أحلامنا بعالم مشرق جميل.

- أفكر جدِّيًا في العكوف على كتابة مجموعة من الكتب كنتُ قد بدأتُها جميعها ثم توقفت، لي عدة ورشات كتابة مفتوحة لم أتمَّ أيَّ واحدةٍ منها إلى غاية الآن.

- جميل صديقي. أتمنى لك التوفيق. أنت شاهد مُهِم على البلاد والعباد. لا تنسَ ذلك أيها الكومينار العظيم.

صمت فيرمي. ظل ماركس يفكر في الجملة المُوالِية المناسبة.

مع التقدّم في العمر وانقشاع ضباب الأوهام الضرورية للمواصلة تصبح الجمل المناسبة قليلة جدًا. وتصبح الجمل المتوافرة غير مناسبة لأي شيء يليق بالعالم.

- هل من أخبار عن شوليي؟

- سيبعدونه عن الجزائر. فعلت كل ما بوسعي. مستشارو الحاكم غاضبون جدًا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وصلتهم أخبار سيئة من المناطق الثلاث هنا. الأهالي مُستعدُون للثورة في أي وقت. أؤكّد لك مسيو ماركس أنني فعلتِ ما استطعت فعله، وبطُرقٍ لا يمكنك تخيُلها أصلًا، من أجل الوصل إلى تخفيف العواقب على الطبيب الشاب. وصلت الإدارة إلى أفضل حل فيما يخصُّه.

- إلى أين سيُبعدونه؟ جَزُر المساجين؟ هل سيُعيَّن طبيبًا في جزيرة الشيطان؟ هكذا سيكون مسجونًا بلباس أنيق.

- لا طبعًا. سيُعين في نورماندي. تعيين قَسري مع مراقبة أمنية يومية لمدة خمس سنوات. عليه أن يكون حذرًا.

- جميل. أنا سعيد لهذا الخبر البائس في المطلق. هل تمَّ إخباره؟

- سيتكفل عمُّه بإخباره وخاصةً بتحذيره.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كلما اقترب موعد المأدبة عمل ماركس داخليًا على الاستعداد للجلسة التي ظلَّ يُمنّي نفسه بأنها مجرد جلسة ستمرُّ سريعًا.

وكلما تدرَّب على تجرُّع فكرة المأدبة ازداد قَرفُه منها.

ولم يدرِ إلا وفيرمي واقف عند بهو الفندق، ينظر إليه وهو ملفوف وسط الرودنغوت في أناقة مبالَغ فيها، يرفع قُبَّعته مُحيِّيًا صاحبه وعارضًا أناقته أكثر للناظرين.

- أنت وسيم فوق العادة سيد ماركس.

لم يَكُن بيت الحاكم بعيدًا. وصلت العربة بعد عشر دقائق أو أقل من حديث فيرمي حول النصوص والقوانين الجديدة التي تنظم المبادلات التجارية بين المستعمرة والميتروبول. حديث لم يُعِرهُ ماركس أي اهتمام رغم أنه، في العادة، من أحَبِّ الأحاديث إليه في العالم.

كان البيت يفضح فخامة كبيرة. ستائر صفراء بعُلوٍّ مبالَغ فيه. نوافذ كثيرة توحي بانتفاء الحواجز بين الداخل والخارج. للحظات تمنى ماركس لو أنه قد دخل البيت الفخم نهارًا لكي يتمتع بتُتَف الشمس التي كانت تلك الأيام تتكرم بها بين الحين والآخر.

راقه كثيرًا الأسلوب العمراني الذي كان يقف في منتصف المسافة بين التقوُّسات العثمانية بأقواسها الإسلامية، وبين الضخامة الرومانية التي استحوذت على فكرة بناء الكنائس غير الشرقية.

كنيسة بقلب مسجد وألبسة محظيَّة إيطاليَّة. كانت تلك هي خلاصة انطباعه الأوَّلي حول بيت الحاكم المطل على البحر من أجمل مكان في المصطفى.

الحاكم رجل يشبه إداريِّي الجمهورية الثانية في كل شيء. كبير في السِّنّ وفي صحة جيدة. ذكي ومنغلق على محاولات دخول قلعته الخفيَّة. يتكلم بنُدرة ويوحي بأنه ليس بحاجة إلى كلام الآخرين، لأنه يفهم كل الكلام من أين يأتي وإلى أين يذهب. لا يضحك أبدًا، وحينما يبتسم يبدو أنه يوجه تهديدًا لمن هو أمامه.

تبادل ماركس أحاديث كثيرة من النوع الذي يكرهه. غرباء وأشباه غرباء

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

جاهزون لتكرار أنفسهم من خلال جديد لا يقول أي جديد.

"هم لا يشبهونني. والغالب أنهم يتمتعون بزائر جديد في بلادٍ لا تستقبل إلا المُعمّرين الجُدد الذين هم في الغالب أناسٌ ثقيلون على الهضم، جهلة، مساجين ورجال أعمال مشبوهون".

كان الجوُّ الرسميُّ متعبًا بالنسبة إلى ماركس المتعوِّد على قول كل شيء بصراحة ومباشَرة، وعلى جعل تعابير وجهه لافتة تكمل ما نقص من وضوح رسائله. "حبيبي ملاكم في عالم الأفكار" كما كانت تقول له جيني حينما تريد التقليل من حدَّة كانت تخشى منها على صحته. كان مقرفًا إلى درجة كبيرة كما توقع أن يكون، وكان يحاول إخفاء علامات القرَف الشديد من مشروع السهرة مُتمنيًا أن تكون الفقرة الموسيقية جميلة وطويلة. كانت هنالك مغنية أُعلن عنها تنبئ بفقرات جيدة، ولكنه لا يعلم شيئًا عن الفرقة الموسيقية التابعة لمصالح المصطفى الخاصة باللهو والترفيه.

سوزيت فرانج كان اسم المغنية. وهي آتية من مرسيليا أين كانت تقدم فقرات من الأوبرا. هوفمان. براهمس. سان صانز. بتهوفن. بيرليوز وهاندل. كان برنامجًا غريبًا. بدا لماركس أنه من الغريب أن يكون في البرنامج هاندل وهوفمان. ارتاح كثيرًا لاسمَي يوهان براهمس وسان صانز، تساءل للحظات في دخيلته التي لا تهدأ أبدًا عن تحليل كل ما يتحرك في الأوساط البُرجوازية: هل أن إدراج رقصات المجر الغجرية لبراهمس فيه إحالةٌ ما على التاريخ الغجري للجزائر، التي يحدث أنها استقبلت غجر الأندلس الفارّين من محاكم التفتيش ومن الجنون الديني الكاثوليكي في القرن السادس عشر بمئات الآلاف.

بسرعة وجد ماركس نفسه يتعرف إلى أهمّ الزوّار المثقفين الذين سيرافقونه في السهرة بالكلام والتبادل الثقافي، الذي تنبني عليه الجلسات المدنية التي غالبًا ما يشعر ماركس بأنها ليست له وأنه ليس لها.

واجب التعريف قام به فيرمي بلباقة كبيرة، وبجُمَل في غاية الرشاقة.

الأول الذي تكلم كان مستر هاريسون أحد مساعدي القنصل الأميركي، رجل أدب وأعمال. يبدو مثقفًا رياضيًا ولَبِقًا بشكل مُبالَغ فيه.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قدمه فيرمي:

- السيد هاريسون شاعر وله كتاب عن طوماس دي كوينسي وكتاب آخر عن إدغار آلان بو.

بادر ماركس:

- ينقصه كتاب عن ويليام بليك.

ضحك الحضور ملتقطين الإشارة الجميلة. ولكن ماركس سارَع إلى طرح السؤال:

- كيف حل مستر هاريسون المشكلة التي وقع فيها أفلاطون؟

ساد صمت عميق قطعه فون غروبر الرحّالة الألماني الذي كان قد حيّاه وحدثه عن الأفق الجميل لتجربة مدينته الأصلية تريف وتجربة إقليم الألزاس كاملًا، وكيف أن نسبة النجاح في مسابقات المدارس العليا عالية جدًا بسبب ازدواجية الثقافة الجرمانية الغالية، بسبب تَوالِي السُلطتين البروسية مرةً والفرنسية مرةً أخرى على تلك المناطق.

- أفلاطون لم ينجح في الحياة السياسية ولكنه ترك كتابًا مرجعيًا في السياسة.

سأل ماركس:

- هل تؤمن بشيء مما في الجمهورية؟ هل تؤمن بأن الناس عليهم أن يقبلوا أصولهم كعبيد ويلتزموا بوضع العبد خدمة لمصالح الجمهورية؟ وما رأي مستر هاريسون في هذا؟

صمت مستر هاريسون لحظاتٍ ثم قال:

- نحن نأخذ من التاريخ ما نريده ونطرح الباقي. لسنا مجبرين على أخذ كل أفلاطون كأنه قدَر محتوم. سأصدُقكم القول: أنا لم أقرأ الجمهورية. أجدها كتابًا قديمًا لا يعنينا كثيرًا. ما قرأته هو ما يعلمه الناس جميعًا. أجد نفسي أكثر في كتابات أشخاص مثل مونتسكيو ولا بويسي وبنجامن فرانكلِن ودي كوينسي.

ظل ماركس صامتًا يستمع. والتفت إلى رفيقه فيرمي فوجد وجهه مغلقًا تمامًا. واكتفى بابتسامة متناهية في الصِغَر. لم يقف مُطوَّلًا عند فيرمي ولا عند الحاكم

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الذي كان يعطي أوامر معينة في أذن المكلف بالتشريفات، بوجهه الذي لا يعبر عن شيء، تعليمات قد تكون مرتبطة بالوجبة وقد تكون متعلقة بإنزال العقاب على بعض المناهضين للنظام الاستعماري. سيكون وجهه الصخري نفسه، فكر ماركس.

أخذ الألماني الكلمة بعدما نظر إليه ماركس.

- ما يحدث في أوروبا اليوم لم يسبق له مثيل في التاريخ. لا يمكننا التسرع في الحكم على الحاضر بقسوة ولا برأفة، لأنه لا أحد يعلم كيف هي ولا كيف ستكون الأمور بعد حين.

- هل تعتقد أن سلوكنا في هذا القرن مفتوح على كل الإمكانات بعيدًا عن إعمالنا لملكات الحكم؟ هل نستطيع فعل أي شيء بما أننا أحدثنا شيئًا اسمه الاستعمار لم يسبق أن عرفه بهذا الشكل المعاصر أي زمن مضى؟

كان كلام ماركس حادًا جدًا، فما كان من فيرمي إلا أن صبّ له نصف كأس من النبيذ الأحمر كأنما لينبهه إلى ضرورة التريُّث قليلًا.

- مسيو ماركس غير مُعجَب - على عكس الجميع - بتجربة تحضير الهمج في إفريقيا على ما يبدو- قال المستر فولر، الكاتب الإنجليزي المقيم في الجزائر.

رشف ماركس رشفةً من نبيذ فيرمي شاكرًا إياه، وقال بصوتٍ أهدأ:

- أعتقد أن الدور الأول للحضارة هو التنظيم. إذا كنّا نقيم نماذج جديدة للحياة لا يجد فيها الناس جميعًا أنفسهم فمعناه أننا لم ننجح في مهمتنا. والعلامة التي لا تُخطئها العين هي كُرْه الناس لنظامنا وشعورنا بالحاجة إلى القمع لجعل الناس يرضون بنظامنا. القمع آفة الزمن الحالي.

نطق الحاكم أخيرًا فاكتشف ماركس أنه يستطيع أن يتكلّم كباقي الحضور، أن له حنجرةً جَهُوريَّةً وأنه يستطيع أن يناقش شؤونًا سياسية عمومية بدلًا من إعطاء أوامر وتعليمات:

- إن سمحتم لي.. شخصيًا أعتقد أن العنف أو القمع أو الردع هو وجه من وجوه السلطة التي تفسد في غيابها. أم أنني مخطئ؟ لا توجد أية حضارة في التاريخ مارست عظمتها دون أن تكون القدرة على المعاقبة هي الضامن الأول لصلاح

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مهمتها.

وافق ماركس برأسه وعينيه، ثم قال:

- تمامًا. هذه قاعدة أوَّليَّة في ممارسة السلطة. إلا أننا نستطيع قياس نجاح السلطة من عدمه بمقياس بسيط جدًا: إلى أي درجة تجبر السلطة على الحياد عن القوانين لأجل ضمان طواعية الشعب الذي وضعها أو قَبِل بها. في غياب هذا الشرط نسقط في البربرية.

ساد صمت معين كأن الجميع ينتظر أن يواصل الحاكم العام. لم يتكلم الحاكم. وبعد لحظاتٍ من الصمت نطق فيرمي:

- أعتقد أن الأرقام ليست ضخمة جدًا بالنسبة إلى حالات استعمال العنف في الجزائر إذا كنَّا نتحدث عن الجزائر.

التفت إليه ماركس. حَدَجَهُ بنظرةٍ ثاقبة. ابتسم فيرمي ثانيةً كأنه يترجَّاه أن يفوِّت الجملة. وعاد الصمت ثانيةً ليخيِّم في انتظار المتكلم المُوالي. وكان هو كاليب هاريسون:

- نحن في أميركا شديدو الاهتمام بصلاحية الدولة الديمقراطية في ظل الاهتمام بالحياة الروحية. هل تعتقد أن دولتك الشيوعية التي تبشر بها قد تقبل كنائسنا البروتستنتانية؟

نظر إليه ماركس بجدِّية تامَّة:

- حَذارِ صديقي، أولًا أنا نفسي أشكُّ في وجود دولة شيوعية. طموحنا هو المجتمع الشيوعي وليس الدولة الشيوعية. من جهةٍ أخرى، فإن ما نطمح إليه ليس القضاء على الدين بل على العبودية السياسية التي ترتبط بالدين. التحرُّر السياسي لا يعني تحرُّر الإنسان من الدين بل حصوله على الحريَّة الدينية. التجربة الأميركية تروقني كثيرًا، خصوصًا في ظل القرابة الكبيرة بين التقاليد اليهودية التي أعرفها جيدًا وبين العقيدة البروتستانتية. تريد رأيي؟ أعتقد أن مارتن لوثر كان يصلح رِبِّيًا وكان ليكون يهوديًا عظيمًا.. هههه

ضحك الجميع عندما انفجر ماركس ضاحكًا. الجميع رحب بلحظات ضاحكة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

في ظل الجدل المحتدم الذي فرضته طريقة ماركس في تحويل المأدبة إلى حلبة صراع فكري.

كان فيرمي يضحك منزعجًا من الجو العام. كل ما كان يخشاه قد حدث بالشكل الأفظع الممكن.

انتظر هاريسون لحظاتٍ بعد خفوت موجة القهقهات ثم سأل:

- دعني أسألك مستر ماركس: أليس التصور الذي شكّلته رفقة رفيقك إنغلز على امتداد القرن منطلقًا من هذا القرن الذي تنتقده؟ هذه الخطوة التقدميّة الكبيرة. ألم تحتوِ أفكارك جُلَّ منجزات العصر البرجوازي؟

وقفز على الفرصة الإنجليزي الذي كان أقل الحضور ابتسامًا حسبما لاحظ ماركس. "يبدو أنه لا يحبني تمامًا"، فكّر ماركس صامتًا ومتأملًا علامات وجه الإنجليزي الذي قال:

- فكرة الطبقات والصراع الطبيعي التي تبني على الدعوة إلى هدمها جُلَ أفكارك ليست جديدة على البشر. لهذا فهم يتقبّلونها ويجدون لها حلولًا طوزًا بعد طور. ولا أريد أن أصدم حضرتك فأقول لك إنني كلما نظرت في التاريخ وجدت الناس طبقات. مما يصعّب تمامًا فكرة تصوُّر إنسانية يوطوبية متخلصة من كل ميل طَبَقِي. أنت نفسك لن تتمكّن مهما ادّعيت يا كاماراد من أن تُقاسم هؤلاء الأهالي عيشهم ووجدانهم.. لن تقبل بجُلّ ما يرتاحون إليه. وسوف تحتقر بعقلك الأوروبي الكبير كل ما سوف يمثل بالنسبة إليهم أفقًا يحلمون به. أية إنسانية هي هذه التي تطمح إليها يا سيدي؟

وقفز الهير فون غروبر على الفرصة، فواصلَ دَكَّ المسامير على خشب الجلسة:

- لن يختلف معي أحد هنا، ولا حتى أنت هير ماركس، بأن جُلَّ المزايا التي ترسم ملامحها كأفقٍ للطبقات العاملة، هي مزايا أتى بها الزمن البرجوازي، فيما كان يعتمل ويتشكّل ويفكّر في نفسه، مع تصحيح مساراته.

أومأ ماركس إلى محدثيه بالرغبة في الإجابة. شابَك بين أنامل الكفَّين، واتكأ على الطاولة محاولًا تهدئة أعصابه التي كانت تغلي بسبب الاتفاق الظاهر تمامًا بين

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الجميع حول الطاولة، وبعد لحظات من الصمت والتأمل نطق:

- المشكلة لا تكمُن في الطبقية نفسها بل في تقاليد عمل الطبقات التي تمخضت عن قرون من البُرجوازية. ما نطمح إليه جميعًا ربما هو بالدرجة الأولى التحرُّر السياسي للجماهير الواسعة. وهذا الأمر يمرُّ بالضرورة بالتخلُّص من الملكية الخاصة.. عندما اجتمعنا عمالًا ومفكرين وسياسيين وحتى بعضًا من أرباب العمل فشكّلنا الأُمميّة الأولى.. كانت فكرتنا المشتركة هي هذه كخطوة أولى.. مع ضرورة توسيع دائرة الانتخاب والتمثيل وتوسيع دوائر الدعاية إلى المفاهيم الديمقراطية العلمانية المدنية التي ورثناها من عصر التنوير، ونشر الإيمان بها ودعمه، مبادئ يحدث فعلًا أن البرجوازية قد كانت صاحبة الفضل الأكبر في نقلها إلى عصرنا هذا، مع أخذ المنعرَج الكبير للثورة الفرنسية بعين الاعتبار.. الثورة التي فكرت فيها البُرجوازية عادَةً إيّاها ثورة يحملها البسطاء لكي يتخلصوا من الهدية المسمومة للبُرجوازية.. وهي مرحلة انتقالية فقط، وليست نقطة الوصول.

كان ماركس غارقًا في الترتيب الدقيق لأفكاره التي كرّرها وصقلها لسنوات طويلة، حينما باغته جليسه الأميركي بصوته المرح:

- أنت تفكر مثل يهودي مارق مستر ماركس.. تؤمن تمامًا باستحالة انعتاق الإنسان من حاجاته العتيقة، وعادة المال أكثر من غيرها. مما يجعل هذه الشيوعية حلمًا مستحيلًا أيها السيد الكريم. ألم تُسمّه أنت نفسك "دين اليهودي الواقعي".. المال، عصب الحرب كما تقولون في فرنسا. واشنطن إيرفنغ كان يقول: لا أدري ما المشكلة ولكنني أعلم يقينًا أن الحل هو المال.

ضحك الجميع، وضحك ماركس أيضًا مُتذكّرًا بأنه لم يقرأ شيئًا لهذا الكاتب الذي برمجه للقراءة عدة مرات، ولكنها برامج تتوسط دائمًا مرضين. كان صوت جيني في ذهنه يقول:

- المرضُ عدوُّ الكتب يا كاري.

اعتدل ماركس في جلسته بعدما شعر بأنه منذ دقائق قد تخلّص من انفعاله الذي كان يستشعره كتيار كهربائي ينتقل إليه من فيرمي. رشف رشفةً من النبيذ الأحمر الجزائري الذي صار يعرف مذاقه الحامض والحلو في آنٍ. تذوق جيدًا شكر النبيذ

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عالي الشخصية ثم قال:

- المال ليس دينًا. هو مرض أصيبت به الرأسمالية ثم أصابت العالم كله بعدواه. هو اليوم فعلًا مشكلة يغرق فيها العالم أجمع.

تكلّم الحاكم أخيرًا فتذكّر الجميع بأن له صوتًا:

- ما الذي تقترحه للشفاء من هذا المرض سيدي؟

- الحل طويل الأجَل للأسف الشديد. الحل يكمن في تحرُّر الإنسان من وسواس الملكية الخاصة. ولدينا كمحطة أولى التفكير المضاد في الميراث الفلسفي الألماني، والنقد الكلي الشامل للاقتصاد السياسي الإنجليزي والتصحيح المنهجي، بحثًا عن جذريَّةٍ متطرِّفةٍ ما في الاشتراكية الفرنسية.

نطق فيرمي متمتعًا بأن يكون هو المتحدث الموالي للحاكم عل الجبهة المضادة لماركس في المأدبة:

- يا له من مشروع كبير!

ودعمه فون غروبر:

- نحتاج إلى مائة سنة من أجل تغيير يُحدث كل هذا الكَمّ من القطائع. ثم إن لي قراءةً أخرى لميراث أجدادي الجرمان.

باغته ماركس سريعًا:

- ألمانيا كانت دائمًا حاضنة لمفهوم أهم من جرمانيتّنا البائسة: الإمبراطورية الرومانية المقدسة. أعتقد أنها لولا هذا الموضع الجغرافي المركزي في أوروبا وفي العالم المُتحضِّر، ولولا هذا الميراث الروماني الذي هو ميراث إغريقي ومشرقي عمومًا، وهو بالتالي ميراث عالمي، لظللنا مثل الجرمان القدامى: لا نجيد شيئًا سوى الصيد والحرب.. من جهةٍ أخرى إن سمحت لي فإنني سأذكّرك بأن كثيرًا من الثورات لا يحتاج مائة سنة. أبطال ثوريون من أمثال عيسى ومحمد نبي العرب وجان دارك احتاجوا إلى وقتٍ أقصر من هذا بكثيرٍ لقلب العالم رأسًا على عَقِب. وإن شئت ذكرت لك عشرات الثوريين عبر التاريخ ممن أحدثوا ثورات عميقة في أوقات قياسية.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

نطق فولر بدون مقدمات:

- تريد جوهر رأيي يا مستر ماركس؟ شخصيًا أحمدُ الربَّ على أن الناس هنا إما جاهلون بك وبأفكارك، أو مُتهيِّبون من سُمعتك الدينية. لو قرأ الجميع كتبك لاقتيد أغلبنا إلى المقصلة مسيو ماركس.

شعر ماركس بحرج شديد وهو يسمع ذلك الكلام الخالي من اللباقة. فتحركت فيه نزعة العناد القديمة. ولم يَدرِ كيف نطق بكلماته تلك قائلًا:

- ستكون تلك حلقة تاريخية. وليست نهاية التاريخ.

اغتنم فولر الفرصة فزاد طينَ ماركس بِلَّة:

- نموت نحن لأجل حلقة تاريخية؟

- في عيون التاريخ الموت أداة.. هي فقط جزء في المُسنَّن الأكبر للغائيَّة.

واصل ماركس بنفس النظرة التي كانت ترعب فيرمي.

- يا له من كلام عجيب في حضور السيد الحاكم!

- السيد الحاكم قد يكون أداة كبيرة ورئيسية.. هههههههه - رمى ماركس جملته تلك متمنيًا أن تذيب جبل الجَليد الذي يحاول الإنجليزي صنعه ببراعة كبيرة.

على غير المتوقَّع، ولحُسن حظ ماركس، ضحك الحاكم ملءَ شدقيه.

- لك روح فكاهة فرنسية تمامًا سيد ماركس. أعتقد أن هذا يفسر سبب زواج كل بناتك الفاضلات بفرنسيين على ما بلغني.

كان تحولًا مريحًا للجميع في الحديث. وقفز فيرمي على فرصة الهدوء النسبي والانشراح كي يضيف جملته اللَّبِقَة:

- أحفاد السيد ماركس كلهم سيكونون فرنسيين رغم أنه ألماني الأصل، هو والمرحومة زوجته ندعو بالسلام لروحها، ورغم كونهما قضيا جُل أيام حياتهما في إنجلترا، وهذا من العظمة المعروفة لفرنسا التي تجتذب الأفضل دائمًا، لقدرتها على تحسُّس آثار العبقرية باكرًا وقبل غيرها. أليس كذلك سيد فولر؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- فرنسا قلب العالم النابض بالحياة.

صمت فولر دقيقة، ثم عاد إلى الهجوم بوجهه غير المشرق غير الوَدُود:

- مهما قلت وكتبت يا سيدي فالأسواق غالبة دائمًا.

- الأسواق هي شعورنا النائم حينما يستيقظ ويخرج من الدماغ ومن البيت إلى الفضاء العمومي.

- العالم الذي تصفه مرعب، سيبير.

- الرعب سلاح معهود لا غرابة فيه ولا عجبَ في حرب الوجود.. شخصيًا عشتُ حياتي كلها في رعبٍ لا يعرفه إلا المهاجرون. رعب الجوع والعراء والأمن. ولم يمنعني هذا من المُضيّ قُدُمًا.

لاحظ فون غروبر الامتعاض على وجه الحاكم تيرمان، فقاطع المواجهة الثنائية بلباقة:

- حصيلتك جيدة هير ماركس. أنت رجل معروف في كل مكان. مُؤخَّرًا سمعت عنك كلامًا جميلًا في جامعة برلين. الناس يقرؤون كتبك ويتحدثون عن كتابك رأس المال كشيء كبير جدًا، رغم أن المتحدث يومها كان يُشعرني تمامًا بأنه لم يفهم جيدًا الكتاب. بل إنه أومأ إلى ذلك، ولكنه فعل باحترام كبير يشي بعظمة المحتوى.

- اشتراكي ألماني. أو مهاجر يحلم بعالم مختلف للأكثر ثورة على الأوضاع: الأقليّات المهاجرة والنسوة اللواتي لا يَعِينَ ما يَقُلْنَه. الثورة النسائية عدوى تأتينا من فرنسا أيضًا. أليس كذلك مستر فيرمي؟

تفاجأ فيرمي من توجيه فولر الحديث إليه. حاول أن يجيب بشكلٍ مُرتَّب ولكنه لم يَكُن منتبهًا تمامًا، فقال مُبتسمًا:

- هل تعرف أشهر إجابة في التاريخ تنجح في تحدّي الأسئلة كلها؟.. هي: نعم/ لا/ ربما oui / non /peut-être

انفجر الجميع ضحكًا، فتنفس فيرمي الصُعداء. وسارَع ماركس إلى إنقاذ صديقه

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المحرَج:

- الاقتصاد مولع بالغُلق. يريد الأكثر دائمًا. والعاملان الكبيران المعول عليهما في هذا العالم البُزجوازي هما فعلًا المرأة والهجرة. لاحظ معي مثلًا تجربة أميركا الحديثة، المهاجرون القادمون من أوروبا، وحتى من آسيا كانوا سببًا في تفقير الطبقة العاملة.. في أعمال السكك الحديدية، ثلاثة صينيين يتقاضون ما يتقاضاه يانكيٌ واحد. هنالك خلَل كبير لا تفسير له إلا الجشع الكبير الذي يتميز به رأس المال..

قاطعه فولر بصوت لم يتحكم فيه جيدًا فجاء أعلى من كل الأصوات:

- أوضاع العمال اليوم أفضل بكثير مما كانت عليه فيما مضى.. سَل مَن تشاء سيقول لك إن الرواتب لا تكُفُّ عن الصعود.

- تلك خُدعة كبيرة. كتبت منذ قرابة عشرين سنة بأن الراتب الفعلي خدعة كبيرة من رأس المال.. على الراتب أن يُقاس بالنسبة إلى عناصر أخرى.. علينا أن نتحدث عن الراتب النسبي لا الفعلي؟؟ من عامٍ لآخر تتعاظم الأرقام ولكن الاستغلال يتعاظم أيضًا.. والأوضاع لا تتغير إلا إلى الأسوأ.

نطق رجل الأعمال الأميركي بصوتٍ هادئٍ تمامًا:

- رأس المال حركة للتطور. لا تستطيع أن تتعامل معه بهذه السلبية كلها. أرباب العمل يجمعون أموالًا للتضامن. للصالح العام. لإعانة الدولة على البناء العمومي. للمستشفيات. لولا الثراء الذي يأتي به أرباب العمل والتجَّار الكبار والصناعيون ومَن تسميهم بتسميتك المحتقرة الرأسماليين أو البرجوازيين، لكُنَّا نعيش في ما قبل التاريخ مسيو ماركس. هل أنت من المولعين بالتخلُّف والبداوة والمبادلات العتيقة للسلع في الأسواق الوسخة؟ هل يكمُن الحل في رأيك في مواجهة السكك الحديدية بالعداء والبرودة؟ رأس المال هو الضامن الوحيد للأمن والرخاء.

- ليس هذا هو الأهم. روح رأس المال هي العمل، والعمل مُنتفٍ وباطل في غياب العمال. رأس المال حيلة لتنظيم العمل. إذا نسينا هذا الأمر وجعلنا نتأمل رأس المال كحقيقة مستقلة عن البروليتاريا وقعنا في خطأٍ كبير. خطأ ينتج عنه أثرياء كحال رجال البنوك من أصدقاء الملك أو الرئيس أو أعضاء غرف النواب، وينتج عن

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ذلك تفقير الطبقة العاملة. وهذا وضع يؤدي إلى الثورة.

لم يجد الأميركي ما يردُّ به فقال بطريقةٍ لا مباليَة:

- عليك أنت أن تبثَّ في الأمر مستر فون غروبر.. يبدو أننا وسط كفَاشة ألمانية. من جهةٍ فلسفةُ آل روتشيلدز ومن الجهة المقابلة فلسفة مستر ماركس.

ضحك الجميع، وسارع فون غروبر إلى الرد: بل هي مسألة إنجليزية. ماركس طُرد من فرنسا وألمانيا ورحبت به إنجلترا. وكذا جماعة روثشيلد، فرغم أصولهم الألمانية القديمة فإن الحاصل هو أنهم قد جاؤوا فرنسا وتجنَّسُوا بجنسيتها من إنجلترا. الأمر موكول لهير فولر الذي يبدو من اسمه أنه من أصول ألمانية أيضًا. أليس كذلك؟ فولر لقب ألماني الأصل، أليس كذلك؟

ضحك الجميع مرةً أخرى لهذا التملُّص الجغرافي اللطيف.

تكلم فيرمي في محاولةٍ أخرى لتخفيف التوتر الساكن في الجلسة:

- الجزائر أرض المهاجرين منذ أقدم الأزمنة. كلكم مُرحَّب بكم هنا. بالمناسبة هنالك رقم رسمي أعتقده أقل من الحقيقة يعدُّ ستة آلاف ألماني يعيشون حاليًا في الجزائر، مما يجعل الألمانية اللغة الرابعة المستعملة في الجزائر اليوم.

قفز فون غروبر:

- يا لها من معلومة مثيرة!

حرك فولر كأسه بشكلٍ صاخبٍ جاعلًا إيَّاها ترتطم بالسُّكَّين والفرشاة، فجذب الانتباه إليه، واغتنم فرصة التفات الجميع صوبه فقال فيما يشبه المقاطعة:

- ماذا عن حقوق الإنسان سير؟ أليست خطوة كبيرة صوب المستقبل الذي تحلم به والذي ربما لن تتمكَّن من رؤيته؟

كان ماركس يشعر بلا جدوى النقاش. اغتاظ داخليًا وشعر بالحنق على نفسه لأنه للحظة شعر بأن الجدل يمكنه أن يأتي بشيء مع أمثال هؤلاء الذين تعودوا ألَّا يقوموا بأي عمل يُذكر، تاركين الآخرين يعملون ليضمنوا لهم حياة الرفاهية. البرْجوازية في أسطع التجلِّيات وأبشعها. قال بلا أي حماس:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- لقد تقلّصت حقوق الإنسان لكي تصبح نسخة مُشوَّهة من نفسها، هي الآن، وبعد قرابة القرن لا تعدو كونها "حقوق إنسان البرجوازية" لا أكثر.

نطق الحاكم للمرة الثالثة بشيءٍ من الحماس غير المسبوق:

- كيف ذلك؟ وثيقة حقوق الإنسان أمر يسعَد له الجميع. أنا لا أفهم كيف يستطيع شيء كهذا أن يُزعجك؟

شعر ماركس بتيار فرح عابر لأنه شعر بأنه حرك الحاكم. وشعر مع ذلك بأن الغد سيكون بائسًا فيما يخصُّ فيرمي. ولكنه كان قد قرر أن يرحل من الجزائر في أقرب فرصة. كانت جيني في خافيته تتحدث مرةً أخرى. "لن يروقك ما ستجده هنالك في الجزائر". سمعها مِرارًا تحاول جعله ينثني عن السفر إلى الجزائر قبل أن تموت. "هل يمكن لامرأة مثل جيني أن تموت؟ يا إلهي!" كانت في عاصمة الأذُن تتكلم بصمتٍ صاخبٍ لا يهدأ أبدًا.

ردع ماركس طيف جيني بإغماضة عين سريعة وقال مُجيبًا الحاكم:

- لقد جرى التمييز بين حقوق الإنسان وحقوق المواطن.. الحرّية لدى كل الفلاسفة المستقيمين لا تستطيع أن تعني الاعتباط، أو اكتسابنا الحق المطلق في التصرف بأي شكل كان ما دام الآخرون في مأمن من شرور أعمالنا. لقد تقلّص فيما أراه معنى حقوق الإنسان إلى معنى الحق في التصرُّف في الملكية الخاصّة. أي الحق البُرجوازي في الاستئثار بالثروات والمِلكيّات. فعدنا إلى العصر الوسيط نتيجةً للثورات المضادة التي أعقبت الثورة الفرنسية والثورات الأوروبية الكثيرة التي عرفها هذا القرن الثائر على كل شيء، والعاجز عن حَلّ أهم مُعضِلة في الثورات.

نطق فون غروبر:

- والتي هي؟

- اليوم المُوالِي ليوم انتصار الثورة. الغالب هو أننا نستيقظ بعد الثورة فنجد أنفسنا نعيش في عالَم ما قبل الثورة. كل شيء في الغد الجديد يشبه الأمس المغضوب عليه في كل شيء. الغد الأفضل يصنع من عجين الأمس الأسوأ. على

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ثوريي القرن القادم أن يفكروا في الأطر التنظيمية والقانونية لهذا الأمر. هذا ما كتبته في آخر مقال كتبته قبل مجيئي إلى الجزائر.

تكلم الأميركي مرةً أخرى:

- هذه أجمل فكرة سمعتها لك مستر ماركس. ولكنني لا أفهم جيدًا من موقعي في أميركا أساسًا كيف يمكن لحقوق الإنسان الذي نعلم جيدًا أنه يحدث له أن يكون بُزجوازيًا في غياب بدائل أخرى يأتي بها "اليوم المُوالي ليوم الفوز في الثورة" أن تكون قيمة سلبية؟ أليست المنفعة البشرية هي محرك الحضارة كلها؟ أليست جانبًا غريزيًا في الإنسان ينظم الحياة كلها؟

أجابه ماركس بالهدوء نفسه:

- المنفعة الشخصية لا تستطيع أن تشكّل برنامجًا حضاريًا. المواطن المناضل ضد الملك في الثورة الفرنسية أصبح فقيرًا مُعدَمًا، وأكثر بؤسًا مما كان عليه من قبل، دون المحافظة على أية حقوق ومزايا سياسية.. وهذا هو الخلل في الأطر التنظيمية لطرق تصريف المنافع المتقاطعة المتضاربة دومًا لكي أستعمل تعابيرك يا سيدي. الطبقية مانعة لكل تفكير في الإنسان. هذا هو جوهر المسألة.

اعترض الشاعر السياسي بلكنته الأميركية المرحة اللامبالية وبأدبٍ كبير:

- الوضع في أميركا مختلف تمامًا. يبدو لي أن البروتستان أكثر خوضًا في المسائل السياسية. ما رأيك مستر ماركس؟

- ستظل هنالك فكرتان في ذهني، هما الأكثر حضورًا كلما فكرت في البروتستانتية.

- وهما؟ واصَل الأميركي.

- مقولة زوجتي الفقيدة جيني: الدين في خدمة الحياة وليس العكس، وصورة كالفن وهو يبارك بورصة جينيف.

انفجر الحميع ضاحكين.

قاطعه فون غروبر:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- السلام لروح الفاضلة زوجتك فراو فيستفالن.

- شُكرًا صديقي.

- مواقفك من الدين متناقضة قليلًا. هل أنت مع زوجتك في تصوُّرها الإيجابي أم مع النقد الداخلي لصورة كالفن، وهو يفعل عكس ما فعله المسيح حينما تصرَّف بعنفٍ كبيرٍ لأوَّل وآخر مرة في حياته مع تجار الهيكل، ضاربًا إياهم وطاردًا إياهم لكيلا يفسدوا العبادة بالبيع والتجارة. وكالفن هنا يبدو أقرب إلى تجَّار الهيكل منه إلى المسيح الذي يدَّعي اتِّباعَ تعاليمه؟

- الدين أيديولوجيا مفعمة بالحياة والقوة وقادرة على أن تكون مصدرًا للوحي في الحياة العملية. ولكن دخوله السياسة يُفسدها تمامًا لأنه ينطلق من المصادرة على كل جدل، والسياسة مسألة جدل وحوار وبحث عن التوافق الأفضل بين الناس، وليس بين رجال الكنائس.

ابتسم فولر وقال:

- ما أسعدنا ونحن نحظى بسماع هذا الكلام منك مستر ماركس. بسماع هذا الكلام، قد نكون محظوظين ومحظيِّين بشكلٍ ما في هذا العَشَاء الذي يشبه قليلًا العشاء الأخير للمسيح.

ابتسم ماركس وقال:

- هل تنوون صَلْبي في اليوم المُوالِي لثورتي الفكرية هذه؟.. هههه.

انفجر الجميع ضاحكين. فيما ابتسم الحاكم.

- لا تعقيد على الإطلاق في مواقفي. من الغريب أنني بيَّنت رأيي في كتابٍ من أوائل كتبي. أقصد المسألة اليهودية. بيان موقفي هو أنه ينبغي على الدين أن يخرج من الفضاء السياسي ويكتفي بالتزام الفضاء الأخلاقي. بهذا يبقى فاعلًا في الحياة ويتراجع مفعوله وهيمنته في الحياة السياسية. أنا شخصيًا أرى بأننا نظلم الدين كثيرًا بإلصاق كل ما يحدث في الدنيا به. هو أوسع من التقلُّبات الكثيرة للحياة الدنيوية، وأعتقد أنه لو حدث له قديمًا ما يحدث اليوم لما قاوم طويلًا، لأن أمراض الحياة الدنيا ستصيبه سريعًا وستُرديه قتيلًا. المواطن مُتديِّن والمتدين

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مواطن ولكن على كل دائرة أن تلتزم حدود عملها واشتغالها. ليس على الناس إلغاء حدودهم الدينية لصالح حدودهم الدنيوية ولا العكس. والحل في تحديد هذه الحدود بدقة. أما الخطأ الأكبر للعصر البُرجوازي فهو أنه قد جعل من المسائل الدنيوية مسائل لاهوتية، فكبَّل العمل السياسي باسم قبول القدَر السماوي، وهنا يصبح الدين أفيونًا للشعوب. أفيون تضعه بحرص كبير أيدي البُرجوازية الجَشِعَة في متناول الشعوب لضمان غيابها عن الوعي واستمرار طواعيّتها.

كان العشاء قد سار إلى الأمام شوطًا كبيرًا. وكان إقبال الآكلين على الأطباق الكثيرة التي تحيط بالخروف المشوي قد خفَّت أوَارُه.

نطق الحاكم بصوتٍ آخر كان مُخبَأً في جيوب حنجرته:

- ماذا لو تتركون مسيو ماركس يرتاح قليلًا من هذا النقاش الذي لا يلائم صحته التي نتمنى لها الشفاء العاجل تحت شمس الجزائر التي يبدو أنها لم تَكُن في الموعد هذا العام.. دعونا نستمع إلى شيءٍ من الموسيقى. كامي سان صانز ممتاز لتيسير الهضم.

شعر ماركس براحة كبيرة وهو يسمع هذا الإعلان المَرِح من رجل لا مرح فيه.

بسرعة غرق مع الموسيقى الصاخبة حينًا والهادئة جدًا حينًا آخر. راودته رغبة في البكاء شديدة حينما جاءت فقرة موسيقى "رقصة الأموات"، التي هلَّلت لها جيني كثيرًا منذ سنوات حينما ظهرت وسط جدل كبير. كانت جيني مغرمةً بها.

تناول ماركس بعض البرتقال وبعض التمر عادلًا عن الكعكة الفرنسية البيضاء التي زيَّنت الطاولة. وظل يستمع بلا مبالاة إلى أحاديث الأدب التي لم تَكُن تحمل أي شيء، عدا تكرار معلومات سطحية وأحكام مكررة بلا كلَل حول أعمال أدبية معروفة.

لاحظ ماركس أن جلساءه نسوا وجوده كأن ملاحظة الحاكم بأن يتركوه يرتاح كانت أمرًا أو تعليمة لا ملاحظة لَبِقَة في حقِّ ضيفٍ عزيز.

كان الحاكم ينظر إلى ساعة الجيب للمرة الثالثة منذ ربع ساعة وتفاءل ماركس كثيرًا لهذا الأمر، لأن معناه أن وقت العِتق من الجلسة قد قرُب.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قضى ماركس ثلاثة أيام لا يرى فيها أحدًا.

راسله فيرمي برسائل قصيرة شديدة اللباقة.

أخبره بأنه لن يزوره في الأيام الثلاثة المقبلة. وأن أي شيء يريده يستطيع طلبه من السيدة روزا وستتكفَّل بإيصال رسالة إليه ليستجيب بسرعة. ساعتَها فقط فهم ماركس سبب الثقة الكبيرة في النَّفس التي لاحظها على روزا في الفندق. هي إذن ملحقة بالإدارة وليست مجرد خادمة مسحوقة تتدلَّل على الأختين شبه المُقعدتَين اللتَين تعوَّدتا على خدماتها الجيدة.

في اليوم الثالث راسله ليطمئن على حاله، وأرسل إليه نسخة من الجريدة. كان المقال أمينًا جدًا. لم يصدق ماركس أن بعض الصيغ المنتقدة للإدارة قد تم نشرها فعلًا في الحوار.

حينما قرأ السيد شوز الحوار ضحك. قال له ماركس:

- غريب نشرهم لهذا الكلام. أليس كذلك؟

صمت السيد شوز قليلًا قبل أن يقول:

- تذكَّرت وأنا أقرأ هذا الحوار صيغة كنَّا نسميها أيام البحرية العداوة المبرمجة. هل تعرف ما العداوة المبرمجة يا سيدي؟

استفهم ماركس بمرح واهتمام ودون أية كلمة.

- حينما كنَّا في البحرية الحربية كنا نحن المسؤولين والرجال الملحقين بنا إذا لاحظنا نشوء حركة احتجاج أو ظهور قائد ما وسط جماعة نخشى ثورتها، برمجنا شجارًا او اختلافًا ما بين عنصرين منَّا، بعدهما يتم عقاب واحد منهما، المعاقب يسجن أيامًا قليلات ثم يُعاقب بحرمانه من الدرجة فيلحق تلقائيًا بالعناصر الثائرة.. الغالب أنه يصبح مُرحَّبًا به وسط الثوار والمشاغبين فيخترقهم ببساطة. وإذا عرفنا القائد الروحي للحركة الثائرة، أو لمدبر العصيان عزلناه ببساطة. رصاصة طائشة، سُمّ خفيف في الأكل، ندبر له شجارًا يُقعده لأسابيع قبل التخلص منه في أقرب فرصة، أو إعادة توجيهه إلى حيث يتم إفراغه من كل جدوى وقوة وأمل في قيادة عصيان أو ثورة..

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- يا لَكُم من خبثاء كبارا!

ابتسم ماركس لتذكُّره كثيرًا من لحظات ماضيه الجميل. أيام الأمميّة الاشتراكيّة الأولى. الفوضى والتجمُّعات والأمل الواسع في تغيير العالم.

- تنتهي المؤسسة إلى ابتلاع كل طاقة مُحرِّكة.

- القبطان على حق دائمًا كما نقول نحن في البحرية.

كان السيد شوز يقول شيئًا مألوفًا حول أن التغيير، ".. إما أن يكون وهمًا وإما أن يحدث بشكل غير محسوس، وهو ما يحدث في أغلب الأحيان"، حينما دخل صبي الردهة حاملًا رسالة وناظرًا صوب ماركس.

كانت الرسالة من فيرمي كما هو متوقع.

الرسالة الثالثة لفيرمي كانت تحمل خبر مواعيد الرحلات المقبلة لمركب البريد العصبي السعيد. وتذكَّر اسم الطبيب الجديد المكلَّف برعايته إلى غاية انصرافه.

كان الدكتور ستيفان قد عاد من عطلته الصحية منذ مدة. كانت له جلسات كثيرة لم تؤتِ أكُلها. الشيء الوحيد الذي ساعد ماركس كان الشمس التي أصبحت مع نهاية شهر أفريل رحيمة وَدُودًا لا تخجل أبدًا من الظهور ببهائها الجزائري الكبير، ظاهرة سافرة كأنها جميلة تخرج من حِدَاد. الدكتور ستيفان طبيب ممتاز، لكنه طيِّب جدًا. يبدو دائمًا كأنه خارج من الدليل العالمي للطبيب النموذجي. بلا زيادة ولا نقصان. طبيب لا شكَّ فيه. وكان عكوفه على حديث الطب دون الخروج من الموضوع أبدًا، ولو للسؤال عن الجوّ والحال وعن الأشياء المحيطة التي هي جزء من الشفاء بالنسبة إلى أي طبيب يُجالس مريضه، سلوكًا غريبًا. ولكن ماركس فهم بأن ذلك يكون بالتأكيد راجعًا إلى حكايته مع شوليي. لا بد أن ستيفان قد تلقَّى تعليمات صارمة كي لا يدخل مع مريضه في أي موضوع هامشي يمهد لعلاقة غير مُرحَّب بها.

كثُر مشيه.

أخذ صورًا باللِّحيَة الكثَّة التي لم يمسَّها مقصٌّ منذ وفاة جيني.

حلق الشعر واللحية، ثم أخذ صورًا أخرى.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

اشترى كثيرًا من الأغراض من الباعة المُتجوّلين في الجزائر، والآغا، والمصطفى.

عبثًا حاول تخفيف وطأة الأيام الأخيرة التي كانت مريرة رغم حلاوة عسل صافية، صافية التي تركت المكان بشكلٍ مريبٍ دون أي سبب أو توضيح كان.

كان يتناول ملعقة العسل الأخيرة التي لملمها من أسفل الزجاجة، وهو يبتسم لفكرة أن العسل ينتهي بانتهاء إقامته في الجزائر.

كان يعلم أنها ليلته الأخيرة في الجزائر.

أخرج كرّاسة جيني التي لم يقرأها منذ أيامٍ لتجنُّب عذاب حضور ذلك الصوت الذي ظلَّ غيابه هو العذاب طيلة أربعين سنة، الذي تحوَّل صدفةً حضوره إلى سيوفٍ تذبح بلا رحمة.

كانت الصفحات التي لم يقرأها بعدُ هي الأخيرة.

راقه أن قراءاته المتقطعة للكراسة ستنتهي مع هذه الأمسية بالذات: 1 مايو 1882.

..."تعلم حبيبي؟

أستطيع رسم خريطة لتاريخك كله من خلال ذبذبات صوتك. هل تعلم ذلك؟

أسمع صوت سُعالك وأجده صوتًا غير مألوف كأنه شخصٌ آخَر يتكلم داخلك بغير صوتك.

مَنِ الذي يسعل داخل صدر حبيبي؟

انصرف أيها المرض الكريه. لا مكانَ لك في قلب الأسد الذي هو قلب كارل ماركس.

يومَ لاقيتُك وأنت رجل تشتهيك النسوة جميعًا كان صوتك أجَشّ، وجسمك صلبًا قويًا. راقني جدًا صوتك الريفي. صوتك الأعلى مما يُحب لصوت الناس الملائمين لنا كما قال أخي فيرديناند. أخي كان منذ تلك الفترة طامعًا في مناصب عليا، وكان يعلم أنه لا شيء يمنع عنه ذاك أكثر من دخول أفكار الشباب الهيغليين إلى عُقر داره.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

للسياسيين طريقة رائعة - بقدر ما هي مُروِّعة - في قول الأشياء عارية.

لم أخبرك بهذا الأمر من قبل. لقد استدعاني إلى مكتبه. استغربت تمامًا تلك الدعوة. سألته عن سبب الطابَع الرسمي للكلام بيننا، نحن المتعودين على الضحك معًا. هل حدث شيء ذو بال؟

قال لي مباشرة: هل ستتزوجين اليهودي الشاب؟ قلت له هو شاب ولكنه ليس يهوديًا. كرر السؤال كأنني لم أقُل شيئًا. أجبته بصوتي الهادئ الذي تسميه أنت the teacher's voice.. قلت له: قد يحدث ذلك، أنا أحبه والغالب أنه سينتبه إلى أن المُتحابَين يطلب ذكورهم إناثهم فيتزوجون، وسيطلبني وسوف أوافق عليه بلا تردد. أعتقد أن هذا هو المسار العادي.

قال لي: ستكون لهذا الزواج تَبِعات كما تعلمين.

لم أُجِبه. التزمت الصمت بعزيمة كبيرة. وفهم هو جيدًا أنني كعادتي لن أغير موقفي ببساطة، وأنني غير مستعدة للنقاش أصلًا.

قال لي كل ما لديه باختصار، وبصوت هادئ بارد تتساقط منه قِطَع ثلجية جعلني أبكي ليلتها، بعدما حبس حنقي دموعي أمامه.

قال لي إنك شابٌ غير لائق بنا، وإنني أكبرك سِنًا، وإنَّ هذا سيجعل المعلقين ينهشون لحمي. قال لي إنني أستطيع أن أتزوج مَنْ أشاء، وأنك أنت ستكون موجودًا دائمًا كلما احتجت إليك في الخفاء. ثم قال لي إن الزواج منك قد يؤدي بالعائلة كلها إلى التنكُّر لي تمامًا. والسبب أنك كنت قد بدأت بنشر مقالات خطيرة فيها انتقاد لنظام الدولة، ووصفت الدولة بأنها تحوَّلت من نظام حكيم إلى نظام بوليسي قاهر..

اختصرت له الكلام بالشكل الذي تعرفه لديّ، فلم يُضِف أية كلمة واكتفى بالوقوف والخروج من مكتبه، معلنًا بذلك نهاية المحادثة. قلت له إن كل ما أريده هو السهر بين ذراعيك، وتقبيلك حتى الصباح، ثم إنجاب أولاد منك. وليس الاختلاء بك من وراء زوج ثريّ غافل أو متغافل.

قلتها بنبرته هو نفسها، مما زاد سُمّ الكلام إيلامًا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

هههههه...

لا زلت أذكر وجهه القرمزي حينما واجهته بذلك الشكل الوَقِح غير المتوقع بيننا.

اشتقت إلى صوتك.

مريضة أنا وأجدُني كما كانت كل نساء طفولتي يفعلن حينما يشعرن بأنهن بلا حيلة إزاء المرض: أدعو الله الذي يؤمن به البروتستان، والذي يشبه كثيرًا إله كل المسيحيين الآخرين، والذي هو ليس ببعيد عن إله اليهود والمسلمين.. دَعوتُه مِرارًا وأنا على هذا الفراش أسمع سُعالك المجنون وأفكر في الغُبن الشديد لفكرة ألّا أراك مرةً أخرى.

دعوته مِرارًا أن يهبنا الشفاء.

نسيتُ أن أسألك.

هل حقًا سنذهب إلى الجزائر؟ الطبيب واهم.

قد تذهب أنت، أما أنا فأشعر للمرّة الأولى بأنني لن أقدر على أن أكون إلى جانبك.

آسفة لخيانتك حبيبي.

الجزائر؟

سمعت عنها ألف حكاية جميلة. ومائة ألف حكاية فظيعة. بلاد المتناقضات كلها. تاريخ عظيم وحاضر بائس. لن تُعجبك. أؤكّد لك أنك سترى ما نعرفه جيدًا في المستعمرات من غياب للإنسانية، ومن قسوة في التعامل مع الأهالي.

الاستعمار هو الابنُ غير الشرعي للرأسمالية التي كنتَ قد جعلتَ حياتَك كلها، وأفكارك جميعًا، بمثابة صاروخ مُوجَّه صوبَها لهدمها عن آخرها.

سوف ترى في مُضيِّفيك - الذين سيبتسمون لك ابتسامة المتحضرين- شياطين ووحوشًا يقهرون الأبرياء لأجل استغلال خيرات بلادهم.

هل تذكر الأرقام التي في تقاريرك وأوراقك، التي كنتَ أراجعها دومًا حول ما تم جلبه من الجزائر تحديدًا من مواد بهدف المشاريع الجنونية لتحويل باريس

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إلى أكبر مدينة في العالم؟ المواد الأوّليّة وخاصةً الحديد.. العمال.. الحِرَفيُون المختصُون، العمال البسطاء من مساجين وسياسيين مُعاقَبين مُخيَّرين بين هذا العمل في باريس وبين منافي الجُزُر البعيدة؟

أرقام رهيبة.

عمال الفحم وعمال المناجم الإفريقية. عمال السكك الحديدية. ثلاثة أرباعهم من المهاجرين والمُهجَّرين. سواء من الأوروبيين أم الأجانب الذين جاءت بهم البواخر. المهاجرون الحالمون بالعيش الأفضل.

الجنون الصناعي الذي ظل يُعرض في المعارض العالمية منذ معرض لندن 1851.. لشهور طويلة ظلت الإعلانات في كل مكان the great exhibition of the works of induStry of all nations.. إنجازات مجنونة في إطار السباق صوب الريادة الصناعية والغلبة العسكرية الحربية في أوروبا.. إنجازات موتاها لا تُعدُّ ولا تُحصى ولا يتحسَّر عليهم أحد.

دَعْني أحذِّرك من هذا السفر باسم عالمة الاجتماع العظيمة التي كنت سأكونها لو أنني لم أتزوجك: كيف تتوقع أن تجد شخصًا عاش قرب مُصلّاه طوال حياته؟

هذه مسائل ذكرتها في نصوصك مِرارًا يا سيد ماركس..

لطالما تساءلت عن طريقة هؤلاء المسلمين في التعامل مع ميراثنا الفكري المعاصر. نحن الذين تحررنا من الفكرة الدينية باكرًا. هل يجوز أن نداوي مريض السُلّ بأدوية مريض الجلد؟

أعتقد أن هذا هو تحديدًا ما يحدث لنا في المستعمرات.

الأهم، والذي لا تعيه القوى الرأسمالية المُستعمِرة، هو أن جوهر أية علاقة مع الجزائر مثلًا هو في طريقة الفرنسيين في التعامل مع المسألة الدينية.. من هنا يمكننا أن نمهد للتحرُّر السياسي الذي ندَّعي دومًا بأننا نذهب إلى بلدانهم بهدفه.

تعلم جيدًا أن أيدي البُرجوازية لا تستطيع أن تكون نظيفة يا ماركس. البُرجوازية مجرمة لأنها تُفلسِف عدوانها.. تبرر للعالم حقَّها في أن يكون العالم خادمًا لها.. تسرق وتعتدي، ثم تدرِّس أبناء الضحايا بأن آباءهم هم المذنبون. البُرجوازية

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المنتصرة التي في قرننا المجنون هذا ستظل تؤجل الحلول الفعلية للمأزق الحضاري الذي نعيشه فيه منذ الثورة الفرنسية.

اختيارُك اللادينيّ وعلمانيتُك غالبًا ما فُهما - ويُفهمان- على أنهما عداء للدين في حد ذاته. ولكن لا أحد ينتبه إلى أنك رفضت مُبكرًا الموقف الإلحادي بوضوح. الناس لا يقرؤونك أيها النبيُ الحديث. هم يقرؤون ما يريدونه من خلالك. كنتُ دومًا واضحًا مع فكرة أن المسألة تدور حول ضرورة تحرُر الدولة من الدين، في انتظار تحرر الإنسان من الدولة وهذه مسألة أخرى.

اشتقتُ إليك يا رجل. اشتقتُ إلى جنونك وعنفوانك. اشتقتُ إلى أيام الجوع والبرد التي كانت تدفئها رُزمة الأوراق التي تكون عند الصباح قد كتبتها لتأتيني وتقرأها عليّ ولا تنتبه إلى أنني جائعة، وأنه لا شيء صالح للأكل في البيت.

كنتُ ثَرِيَّة جدًا رغم الجوع والبرد. كنت أشعر بالسعادة، وهو شعور لا يعرفه أخي الوزير العظيم في دولة بسمارك.. شعور لا يعرف عنه أخي إلا أنه كلمة تختبئ من عيونه داخل القواميس.

Telegram:@mbooks90

أحبك ولا أريد أن أموت قبل أن أقول أحبك بالقدر الكافي.

خطر لي أنني ربما..".

هنا انتهت الرسالة بطريقةٍ مباغتة. كان يعلم أنها الورقة الأخيرة، ومع ذلك فقد قلبها ليطّلع على الوجه الآخر من الورقة لعلَّ فيه شيئًا ما.

لم يَكُن هنالك شيء آخر. انتهت الرسالة.

كانت تلك آخر كلمة كتبتها جيني قبل أن يباغتها الموت.

هاجت شجونُه كلها وهو يقرأ تلك الجملة الأخيرة غير المكتملة التي خنقت صوت جيني.

فكّر في ألف شيء يكون قد حدث. ولكنها ألف إمكانية نهايتها في مسلسل تخيُلاته صورة جيني في نعشها، ومُحبُوها يُقبّلون جبهتها، أو يرمون عليها وردَ الوداع. كانت جميلة مبتسمة. عاشت وماتت راضيةً عن نفسها.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ماذا يكون قد خطر لك أنه ربما.. ربما ماذا يا جيني الحبيبة؟

هل تنتهي حياة مثل حياتك في شهر مثل ديسمبر، وعند كلمةٍ مثل ربما؟

يا لها من حياة قاسية هذه التي لا تهبك فرصة أن تقولي كلمتك الأخيرة!

يا لها من حياة قاسية هذه التي تقودنا إلى كل هذا الألم!

فكّر في أن زجاجة الويسكي التي يحملها مسيو شوز قد تكون مفيدةً له في تلك اللحظات.

ترك غرفته المُكفهِرّة بآثار ديسمبر في عز شهر ماي، والغارقة في الأجواء الجزائرية المبهمة دائمًا كأنها بلاد تعيش تحت وطأة لفظة جيني الأخيرة.

ربما.

ربما.. ربما ماذا جيني؟ ربما ماذا؟

شيء ما مرير كان يخترقه.

قصد البهو أين كان مسيو شوز يقرأ الجريدة وزجاجة الويسكي تجاوره.

حيّاه. جلس وطلب الإذن في تناول شيء من زجاجته بنظرة مُكفهِرّة.

رحّب شوز كثيرًا لعلمه أن الشراب المفضل لدى صديقه السيد ماركس هو النبيذ الأحمر. النبيذ الجزائري اللذيذ المنتشر في كل مكان. النبيذ الأحمر الجزائري الذي يشبه أن يكون السبب المباشر للاحتلال.

أفرغ ماركس كأسًا سريعة متلمظًا، ومُعانيًا مع الدرجة غير المعتادة من الكُحول التي أدخلها بأسرع مما يجب لشاربٍ غير مُتعوِّد إلى حلقه الملتهب.

كان يفكر في رحيل الغد متناسيًا سياط الذاكرة التي تحركها جيني دائمًا بطريقة غير متوقعة. مضى عليه شهران ونصف الشهر في هذه المدينة الغريبة. صحّته لم تتحسن ولكنه مرتاح لأنها بالمقابل لم تَسُؤ. استعاد قليلًا القدرة على السير بفضل التحسُّن الطفيف للجوّ الذي بدا له كأنه لم يتحسن تمامًا رغم رَوَاق جوّ الأماسي عمومًا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لم يخبر باستعداده للرحيل إلا السيدَ شوز الذي شعر بأنه في الأسابيع الأخيرة صار يخترع مواضيع متنوعة، وبطريقة فوضوية أحيانًا لفتح أبواب الحديث. حينما علم برحيل ماركس في الغد شرب ثلاثة أكواب من الويسكي الذي كان أمامه. وانتهى به الأمر يضحك مُحمرَّ العينين لأي شيء يُقال. ثم يصمت حينًا كأنه يتذكَّر شيئًا ثم يضحك ضحكة هستيريَّة لا يعلم سببها أحد.

- لماذا يا تُرى يضحك صديقي المحارب المُتعَب؟

- لا شيء.. أعتقد أنه علينا أن نضحك من الأشياء التي تُبكينا عادة. هذه طريقة صالحة لعلاجها.

- أنت رجل حكيم. وكثيرًا ما تتحدث مثل كاتب. عليك أن تفكر جدِّيًا في تحريرِ كتابٍ ما تروي فيه شهادتك حول العالم يا صديقي.

- تعلم جيدًا سيد ماركس أن الذين يكتبون إنما يحركهم الفرح. حتى حينما يكتبون عن أشياء حزينة. هم في الداخل فَرِحون بذلك الحزن. الذي يتعذب يحاول النسيان. لهذا لا يكتب الجزائريون كُتبًا. هم يصمتون في انتظار مرورنا واندثارنا. ولا يكتبون شيئًا عنَّا وعن مآسيهم التي نحن سببها على أمل ألَّا يتذكَّرونا في المستقبل.

تأمَّل ماركس في عينَي السيد شوز الذي كان يضحك منذ قليل. كان هنالك حزنٌ عميقٌ في عينيه يتكلَّم إليه بلغةٍ خفيَّة. ولكنه كان هو نفسه غارقًا في إحساسٍ ما بالتعب أو الخَدَر أو.. ربما..

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المؤلف في سطور

د. فيصل الأحمر

رِوائيٌ وأكاديميٌ جزائريّ.

أستاذ كرسيّ الترجمة والتيارات الفكريّة بجامعة بومرداس (قسم اللغة الإنجليزيّة). الجزائر.

مُهتمٌّ بالخيال العلميّ والفلسفة والدراسات الثقافيّة.

كاتبٌ مجرّبٌ مجدّدٌ مُتميّز النبرة، تتّسم جميع أعماله بطابَعٍ تجديديٍّ تجريبيّ يجمع الأسئلة الرّاهنة للكتابة مع هواجس فلسفيّة وتاريخيّة وسياسيّة.

حاصلٌ على عدّة جوائز أدبيّة وعدة تكريمات.

له عشرون كتابًا تتوزّع بين الرواية والشّعر والترجمة والفلسفة والدراسات الثقافيّة.

أُلّف حوله كثيرٌ من الدراسات المهمّة بالعربيّة والفرنسيّة والإنجليزيّة والإيطاليّة والرومانيّة والصينيّة، كما صدر حول تجربته كتابان، هما:

- سرد الخيال العلمي لدى فيصل الأحمر للدكتورة لمياء عيطو/الجزائر - 2013.

- الخيال العلمي بصيغة المُؤنّث. كتاب جماعي فيه دراسات لناقدات عربيّات حول رواية: "أمين العلواني" لفيصل الأحمر - 2023.

رواياتـه هي:

- رجل الأعمال - 2003.

- أمين العلواني - 2008 (4 طبعات). الطبعة الثالثة عن دار العين: 2017.

- ساعة حرب ساعة حب - 2011 (3 طبعات).

- حالة حب - 2015 (3 طبعات).

- النوافذ الداخليّة - 2017 (طبعتان).

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- ضمير المتكلم - 2021.

- في البعد المنسي (خيال علمي للناشئة) - 2022.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner